الفصل الثّاني

تفصيلُ التَّدبُّرِ
في أسرارِ بلاغةِ السُّورةِ

إذا ما كان الذي مضَى نظرًا في كليّاتٍ إلى المنهج أقربِ فإنَّ الـذي آتيـك بعونِ اللهِ سُبحَانَهُ وتَعالَى نظرٌ في كلمات السـورةِ وفِـي جملـها وفي آياتهـا ، أُحاول مستعِينًا بالله تعالى متجردًا من الحولِ والقوة أن أتدبّرَ بعضًا ممَّا هـو مكنونُ فيها من معانِي الهدَى وأن أستنبطه وفق أصولِ الاسـتنباطِ وضـوابطِهِ ، وأنْ أُقدمَه إليك لعلّك تذوقُ شيئًا ينيرُ قلبك من أسرارِ بلاغتِها ، فيكونَ لـك منه زادٌ تصطحبُه في مسيرك إلى مرضَاةِ ربّك سُبحَانَهُ وتَعالَى .

ذلك أنَّ التدبرَ والاستنباط وإن كان أمرًا جليلاً جميلاً فإنّه ليسَ غايةً فِي نفسِه ، فليس في الإسلام اتخاذُ العلمِ متعة نفسٍ ، بل هو وسيلةٌ إلى غايةٍ أجلّ إنّها التحقّقُ بكمالِ العبودية لله ربّ العالمِين ، وهي غايةٌ ليس باليسير تحقِيقها على كمالها ، وما على العبدِ إلا أن يستعين بالله تعالى ويجاهد ويجتهد ، ويجعل أمره كلّه مبنيٌّ على قول اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ (الفاتحة:٥)

وقد استعاذَ رسـولُ اللهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِـه وسلّم مـن علـم

لا ينفع[1] ومن العلم الذي لا ينفع العلم الذي يشغل تحصيله عن العمل بِه ، فقليلٌ من علمٍ يُعملُ به إيمانا واحتسابًا خيرٌ ألفَ مرّة من وفيرٍ علم محقّق مدقّق لا يعملُ بِه[2].

وقد نعت من يعلم ولا يعمل بأنه من المغضُوب عليهِ ، ومن عمل بغير علمٍ بأنه ضال ، وقد هدينا في خاتمة أمّ الكتابِ أن نستجير باللهِ تعالى من هذين : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة:٦،٧)

* * *

وممَّا حرصت على شيْءٍ منه النظرُ في ما جاء من القراءاتِ المتواترة في هذه السورة ، والنَّظر فيما يرد من الوقف التّام والجائز والممتنع لما لذلك من أثر في حسن فقه المعنى القرآني .

---

(١) روى مسلمٌ في صَحيحه بسنده : عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ لاَ أَقُولُ لَكُمْ إِلاَّ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم كَانَ يَقُولُ :
« اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا **اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ** وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا ». كتاب : الذكر والدعاء والتوبة . حديث رقم (٧٠٨١)

(٢) ومن العلم الذي لا ينفع العلم الذي لا يمازجه ويخالطه حكمة ، فذلك الذي ضُره أعظم من نفعِه ، بل لا نفع له البتة . إن قليلاً من العلم مع كثيرٍ من العقل (الحكمة) لهو أنفع لصاحبه ولمن يسمعه .
وقد ابتلانا الله تعالى بثلة ممن ينسبون إلى أهل العلم من تكاثرت في رأسِه مقالات أهل العلم في القضايا والمسائل ، فتجد لسانه يدفق بالقول المحمول عن الأئمة ولكن الله تعالى قد جعَل تلك الرؤوس بلاقع من العقلِ والحكمة ، فجاءت من أفواههم فتاوى هي الضلالُ المبين ، وأمثال أولئك فريضة على وليّ الأمر ـ إن كان غير غاشٍّ لشعبِه ـ أن يُقيم عليهم حجر السُّفهاء ..

ذلك أنَّ كُلّ قراءة متواترة في كلمة من آيةٍ تجعلُ هذه الآية آيةً جديدةً من حيثُ المعنَى أي أنّ عطاءَ هذه القراءة المتواترةِ يعادلُ عطاء قراءةٍ أخرى في الكلمةِ نفسِها والآية نفسِها .

وهكذا تتعدَّدُ المعاني بتعدّدِ القراءاتِ في الكلمةِ الواحدَة في الآية الواحدة ، فإذا كان في الآية عدَّة قراءات في أكثر من كلمة تبيّن لك تنَوّعُ المعاني للآية الواحدةِ ، وهذا من فيضِ عطاءات القُرآن الكريم .

إنّ أَدنَى تصريفٍ بيانيٍّ في أيِّ عُنصُرٍ مِن عناصِرِ الكلمة أو أدنَى تَصَرُّفٍ في أدائهِ هو بالضّرورَةِ قَد اقتضاه معنًى لا يدلّ عليْه إلا ذلك التصرّفُ البيانيّ أو الأدائيّ ، وإلا كانَ هذا التّصرّفُ عقِيمًا مِن حيثُ المعنَى ، ومثلُ هذا يجلّ عَنهُ كتابُ ربّنا سُبحَانَهُ وتَعالَى الذي أعجز العالمينَ بِمعناه ومبناه كلمًا وجملاً وآيًا ، ونجُومًا ومعاقدَ وسُورًا .

وهذا ممَّا يجبُ أن تتوفّر له جهودُ طلابِ العلم للوفاءِ ببعضِ حقّه العظيم . وكلّ يحملُ ما يَجودُ بِه ربّ العالمين .

* * *

ومنهج الوقف في التلاوة مرتبطٌ بتأويل المعنى وتفسِيره ، ذلك أن الوقف وسيلة من وسائل التفسِير ، فالقارئُ هو مفسّرٌ ، وبتنوع أنماط الوقوف وفق أصول وضوابط يتنوع فقه المعنى ، وقد عُني علماءُ القرآن بهذا الباب عناية بالغة ، لا تجد كتابًا قد عُني أهله بهذا الباب فيه .

وقد هدى النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم إلى وجوبِ تفصيل القراءة تفصيلاً يقي من عجن المعاني ببعضِها ببعضٍ .

روى أحمد في مسنده بسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِىِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ « أَتَانِى جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ

فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اقْرَأْ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ . فَقَالَ مِيكَائِيلُ اسْتَزِدْهُ . قَالَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ كُلِّهَا شَافٍ كَافٍ مَا لَمْ تُخْتَمْ آيَةُ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ أَوْ آيَةُ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ».

هذا هادٍ إلى أنه لا يستقيم أن تخلط في التلاوة آية رحمةٍ بآية عذاب ، بل يجبُ أن تقف على ختام آية الرَّحمة ، لتستفتح آية العذاب .

يقُول أبو عمر الدّاني مبينًا ما جاءَ في حديثِ رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم :

« فهذا تعليم التَّمام [أيْ الوقف التّام] من رسول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم عن جبريل عليه السلام ، إذ ظاهره دال على أنه ينبغي أن يقطعَ على الآيةِ الَّتي فيها ذكرُ النَّار والعقابِ ، ويفصلَ ممّا بعدها إن كان بعدَها ذكرُ الجنّة والثواب ، وكذلك يلزمُ أن يقطعَ على الآية التي فيها ذكرُ الجنّة والثّوابِ ، ويفصلَ ممّا بعدها أيضاً إن كان بعدها ذكر النار والعقاب .

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ **فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ (البقرة:٨١) هنا الوقف .

ولا يجوز أن يوصل ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ** ﴾ (البقرة:٨٢) ، ويقطع على ذلك ، ويختم به الآية .

ومثلــه : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ** ﴾ (غافر:٦) هنا التمام .

ولا يجوز أن يوصل ذلك بقوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ** ﴾ (غافر:٧) ، ويقطع عليه ، ويجعل خاتماً للآية .

وكذلك : ﴿ **يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ** ﴾ (الإنسان:٣١) هنا الوقف .

ولا يجوز أن يوصل ذلك بقوله : ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ . . . ﴾ (الإنسان:٣١) ويقطع على ذلك . وكذلك ما أشبهه»[١].

ويحسُن أن يكونُ الوقف هنا وقفًا بيّنا يلفتُ السامع إلى أن المعنى قد تم ، وأنا ننتقلُ إلى معنى آخر . ليتهيّأَ السّامِعُ لتلقيه بما يليقُ بِه . والوقف البيّن يتحقق بالسكوت والتنفس بين الموضعين .

وهذا من قِرى القارئ للسامعِ ، فلا يسلِمه لسوء الفهم ، والاضطراب .

وقِرَى العقولِ والقلوبِ بعوامل حسنِ الفهمِ والتَّلقِّى أجلّ منزلاً ، وأكرم عطاءً مِن قِرَى البطون بشهيّ المطعوم ، ولكنَّ أكثرَ النّاسِ عَن ذلك غافلون .

ومن الحسنِ أن يُعنى طالبُ العلم بكتابِ الله تعالى بهذا الباب ، ولا سِيما طالب العلم ببيانِه وبلاغتِه ، فإنّ هذا الباب من أجل أبواب فقه المعنى القرآنيّ .

يقُول ابن الأنباريّ (ت:٣٢٨هـ) :

«مِن تمامِ معرفةِ القرآنِ ومعانيهِ ، وغريبِهِ معرفةُ الوقفِ والابتداءِ فيه ، فينبغِي للقارِئ أن يعرفَ الوقفَ التَّامَّ ، والوقفَ الكافِي الَّذي ليسَ بتامٍّ ، والوقفَ القبيحَ الّذِي ليس بتامٍّ ولا كافٍ»[٢]

* * *

---

(١) المكتفى في الوقف والابتدا لأبي عمرو الداني (المتوفى : ٤٤٤هـ) تحقيق : محيي الدين عبد الرحمن رمضان الناشر : دار عمار . الطبعة : الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م . ص ٤

(٢) إيضاح في الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ ، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباريّ . (ت:٣٢٨هـ) تحقيق :محيي الدين عبد الرحمن رمضان . ط . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٩١ ، ١/١٠٨، فقرة : ١٢٨

مدخلٌ

فِي أسرارِ بلاغةِ الاستعاذةِ باللهِ مِن الشّيطانِ الرَّجِيمِ

لا ريبَ في أنَّ من جلائل الأعمال التي يصطنِعُها العبدُ المُسلمُ تلاوةَ القُرآن الكريمِ ، فَهو عملٌ جدُّ جليلٍ أَثرُه فيمن قام له وبه إيمانًا واحتسابًا ، ومِن ثَم لا يكونُ من الشّيطان الذي أقسم أن يقُوم للإنسان عدوًّا مبينا إلا أن يُجاهدَ في منعِه منه أو إفسَاده عليْه .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف:١٦-١٨)

وصرّف الله تعالى البيان عن ذلك في قوله سُبْحانَه وتَعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (الحجر:٣٦-٤٤)

وفِي قولِه تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص:٧٩-٨٣)

وفي تصريف البيان عن هذه الحقيقة دعوةٌ عظيمةٌ إلَى أنْ يقومَ هذا التّوعُّدُ الشَّيطانيّ في قلبِ المسلمِ لا يغيبُ عنه ولا يغيم البتة . بل يكون المسلِمُ منِه دائمًا على ذكرٍ ، وعلى يَقين أنَّ الشيطان لن يَكلّ ولن يَملّ من السّعي الحثيثِ النّشِطِ المتنوّعِ فِي تحقِيقِ ما توعّدِ به ، فلا يكونَنّ المسلم أضعفَ عزيمة من عدوّ الله تعالى فيتخذَ الشّيطانَ عدوَّه الأوّلَ والرَّئيسَ .

وقد أكدّ اللهُ تعالَى هذا الفريضة قائلاً : ﴿ **إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾ (فاطر:٦)

وإذا ما كان الله تعالى قد بيَّن لنا عَظيمَ عَدَاوةِ الشّيطانِ لنَا فَإنّهُ في الوقتِ نفسِهِ لم يدخلْ اللهِ تعالَى في قلبِ الإنسانِ ما يزرعُ القنوطُ من دفع كيدِ الشّيطان ودحرِه ، فيُعيقَه ذلك القُنوط أو ما دونَه عن رسالتِه من الوجلِ مِن الشيطان لأنّه ليس من أدبِ المُسلمِ وقد أيقن أنّ له ربًّا ، وأنّه عبدُ ذلك الرّبّ القوي العزيزِ وعابده أن ييأسَ من روحِ الله تعالى : ﴿ **إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾ (يوسف:٨٧) فَمن رحمةِ الله تعالى أن قال جلَّ جلالُه : ﴿ **إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ (النساء:٧٦)

بهذا أبان القرآن عن موقفِ الشَّيطانِ مِن الإنسانِ ، وعَن قيمة هذا الموقفِ ، وأثرِه في حياةِ الإنسانِ ، وحماه من أن يقُوم في قلبِه القنوط من دفعِه ، فدلَّه على أن يتخذَ منه الحذرَ في كلِّ عملٍ نافعٍ له ، فإنّ الشّيطانَ لن يهدأَ إلا إذا أفسده عليه فدعاه اللهُ تعالى إلى أن يعتصم بهِ سُبْحَانَه وتَعالَى منه ، ولاسيّما في ما هو عملٌ جليل كمثلِ تلاوةِ القرآن ، فجاء في كتابِ الله تعالى الأمرُ بالاستِعاذَة باللهِ من الشّيطانِ الرّجيم عند افتتاحِ قِراءةِ القُرآنِ : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ** ﴾ (النحل:٩٨)

وجاء في آياتٍ أُخــر الأمر بالاستعــاذةِ بالله تعالى عندما يعتري المسلِمَ ما يعيقُه عن رسَالته من نزغِ شيطانٍ من شياطين الإنس : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (غافر:٥٦)

أو شياطين الجن : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف:٢٠٠)

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

(فصلت:٣٦)

والاستِعاذةُ «الاستجارة والتحيّز إلى الشيء على وجه الامتناع به من المكروه» فدلّ الأمرُ بها في ابتداءِ قراءةِ القُرآن علَى أنَّ هذه القِراءَةَ ممّا يحتمل أن يتعرَّضَ القارئ لشيْءٍ من نزغِ شياطين الإنسِ بما يلقُونَه صَباحَ مساء من الشّبهات المهتوتةِ ، أو لشيْءٍ من نزغِ شياطين الجن بما يُلقِيه من الوساوِسِ ، فتُصرفُ النّفس عن الإقبالِ ، ويُصرِفُ القلبَ عن التّدبّر ، فحثَّ الله تعالى القارئ على أن يتخذ الحيطةَ والحذرَ مِن هذه الأفاعيلِ ، فعليْه أن يستعيذ بالله تعالى من ذلك .

وإذا ما جَرينا على أنَّ الأصلَ في دَلالةِ الأمرِ الوجوبُ ، إلا إذا كان في سِياقِ الكلامِ المقالِيّ أو المقاميّ ما يَصرِف عن ذلك الوجوب[1] فإنّ الأمر

(١) الفصول في الأصول ، لأبي بكر الرازي الجصّاص الحنفي (ت: ٣٧٠هـ) ط : ١٢، ١٤١٤هـ ، وزارة الأوقاف الكويتية ، ٧٩/٢ وما بعدها ، أصول السَّرخسيّ ، دار المعرفة ـ بيروت ، ١٤/١ . المعتمد في أصول الفقه ، لأبي الحسين البَصْري (ت : ٤٣٦هـ) تحقيق : خليل الميس ، ط . ١ ، ١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ٣٧/١ وما بعدها

بالاستعاذة بالله تعالى في قولِه عزّ وعلا : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف:٢٠٠) يفهمُ منه أنَّ الاستعاذة بالله تعالى في مفتتحِ قراءَةِ القرآن واجبةٌ ، والذي يُعلَى القولَ بوجوبِها عندي شَدِيدُ حاجةِ المسلِم إليها ، وهو مُقدمٌ على هذا العملِ الجليلِ ، فكلمَا كان العملُ جليلاً كلّما كان احتشادُ الشّيطان لمنعِهِ منه أو إفسَادِه عليه فتيًّا ، ولاسَيما مع أولئك الذين تتجاوز تلاوتهم تلاوة حروفِه إلى تدبرها وإقامة أنوارها في قلوبهم وجوارِحهم ، فإذا ثواب الحرف فوق سبع مئة حسنة . أولئك يكونُ احتشادُ الشيطان لشغلهم ، وإفسادِ الأمر عليهم جدّ شديد ، فهم أشدّ ما يكونُون افتقَارًا إلى الاستعاذة بالله تعالى من هذا الاحتشاد .

والأمر بطلبِ الاستعاذة في مفتتح القراءة دالٌ على أنّ ما هو مقبلٌ عليه العبدُ من قراءة القرآن أمرٌ مهمٌ جدًّا ، بلْ هو أمرٌ جليلٌ ، لنْ يهدَأ الشيطان حتَى يصرِفه عنْه أو يُفسِده عليه أو ينقِصَ من أدائه له لينقصَ ثوابَه عليْه فإن الشّيطان عليم بأنّ الله تعالى قد تكفّل متفضلاً أن منْ قرأ شيئًا من القرآن إيمانًا واحتسابًا فإن أدنى ما يكونُ له من الثواب عشر حسنات على كلّ حرفٍ كما أنبأت بذلك السّنة النبويّة .[1]

---

(١) روى الترمذي في كتاب (فضائل القرآن) من جامعه بسنده عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم : « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لاَ أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ».

بلْ إن هذا الحرف قد يكون الثوابُ عليْه لبعض القراء أكثر من سبعمائة ضعف لما جاء في هدي النبوة النّبأُ عَنه : روَى الشيخان في صحيحيهما : البخاريّ في كتابِ الرقاق ومسلم في كتاب (الإيمان) بِسنَدِيهما عَنِ ابْنِ عَبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ عَنِ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فِيمَا يَرْوِى عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ قَالَ : ==

من هنا كان حسنًا السّعي إلى تبصّر ما يحمله نظم هذه الاستعاذة من دقائقِ معانِي الهدى ولطائفها لعلّ في هذا ما يحقّقُ لنا نصيبًا من قبولِ اللهِ تعالَى لنا ، وإقبالِه علينا ، وذلك مطلوبُ كلّ مسلمٍ .

* * *

الاستعاذة بهذه الصيغة : « أعُوذُ بِاللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجِيمِ » أو « أعُوذُ باللهِ السَّمِيعِ العليم مِن الشّيطانِ الرّجيمِ » ليست بآية ، ولكنها مستمدة من آية في كتابِ الله تعالى كما مضى .(١)

وإذا ما كانت الاستعاذة هي طلبُ العوذِ والالتجاءِ والتحصّنِ والاعتصامِ والاستعانةِ بمن يُستعاذُ به فإنَّ هذا لا يطلبُه إلا مستشعرٌ بعظيم خطرٍ قادمٍ عليْه أو يتوقع قدُومَه لما هو فيه من خيرٍ يراد استراقُه منه أو منعهُ من الانتفاعِ به . ولا يطلبُه أيضًا إلا موقنٌ بعجزِه ، وأن من يستعيذ منه ذو قوة وغلبة هو لايملكُ بذاتِه دفعَها أو صرفَها عنه ، ولا يُطيقُ وقُوعها عليْه ، ولا يطلبه أيضًا إلا من هو موقنٌ أنَّ له من يحميه إذا ما توجّه إليه بذلك

== « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » .

(١) وهذه الجملة « أعُوذُ بِاللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجِيمِ » تحتمل أن تكون جملة خبرية ، يخبرُ به المرءُ عن حالِه ، أو جملة إنشائية كأنّه يقُول اللهم إني أعوذ بك .... إلخ . ومجيءُ الدعاءِ في صُورة الخبرِ يذهبُ بعضُ أهلِ العلم إلى أنّه من قبيلِ المجاز المرسلِ المركَّبِ المعادل لما يُعرف بالمجاز الاستِعاريّ المركب . فهو يُقيم صُورة مركبة مقامَ صُورةٍ مركبةٍ أخرى بيْنهما علاقة غيرَ علاقةِ المشابهة ، سعيًا إلى أن ما دعا به استجيبَ له ، ووقعَ ، فأخبرَ عنه .

الطلب ، وأنّه قدم بيْن يدي ذلك ما يجعلُه أهلاً لأن يستجيبَ له من يتحصّن به ، لأنّه استجاب لأمرِه ونهيه حين أمره بما يفعله ، وحين نهاه عما يضره ، فاستجاب ، فكان أهلا لأنْ يستجيب الله تعالى له .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة:١٨٦)

فمَن استجابَ لربّهِ عزّ وعلا حينَ يَأمرُهُ وينهاهُ فإنّ الله تعالَى يستجيبُ له حين يستجيرُ به ويستجديه عونَه وحفظَه وكلاءته .

ومن استجابة العبدِ لِربِه تعالى ، استجابتُه لأمره في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (النحل:٩٨) فإذا قالها العبدُ عندَ مفتتحِ تلاوتِه واعيا مستبصرًا ما يقُول قاصدَه إيمانًا واحتسابًا ، فَإنّه بذلك يكون قد سعَى إلى أنْ يَجعَلَ نَفسَه أهلاً لأن يُستجابَ لها ما طلب واستجدى من العوذ والتحصين ، فيتحقّقُ له ذلك إن شاء الله تعالى .

* * *

قولُه تعالى (أعُوذُ) خبرٌ أُريدَ به الدّعاء والابتِهالِ إلى اللهِ سُبحانَه وتَعالَى وهذا يعلِّمُنا أن نُقدم بيْن يدي الطَّاعة إعلانًا إلى الله تعالى عظيم حَوجِنا وعَجزِنا وعَوزنا إلى عَونِه وحِفظِه ، وأنَّنا خلاءٌ تمامًا من كلّ حولٍ وقوةٍ ، فلا يدعنا ويخلّي بيننا وبين أنفسنا ، ولا يُخلّي بيْننا وبيْن الشّياطين من حولنا : شَياطِينَ الإنس وشَياطين الجنّ .

وإذا ما كان البيانُ القرآنيُّ قائلا : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (النحل:٩٨) فإنَّ البيان بالفعل الماضِي (قرأت) لا يعنِي

أنه يستعاذُ به من بعدِ الفراغِ من القِراءة ، فإنّ المعنى على فإذا أردت قراءة القُرآن . مبينًا عن إرادة الفعلِ بالفعلِ نفسِه وكأنّه قد فرغَ منه ، وفي هذا من الهدَى أنَّ الشأنَ في المسلمِ إذا ما أرادَ فعلَ خيرٍ فإنه عازمٌ على إنفاذه ومؤدّيه على الوجه الأكمل ، لا يُحاجزُه عنه محاجزٌ ، فمجرد إرادته وتحرك القلبِ به آيةٌ علَى أنه كائنٌ بحولِ الله تعالى وقوته ، وفي هذا تعليم للمسلم أن يكون فتيّ الإرادة في الخيرِ ، حديد العزيمة في صناعته ونشره .

ولا تجدُ في حياة المسلم معيقةً كمثلِ خور العزم ، فكلُّ مسلمٍ مريدٌ لفعلِ الخير ، إلا أنّ كثيرًا منهم لا يكاد يفعل .

من هنا يحثنا القرآن على أن نحيل إرادتنا الخير فعلا قائمًا مشهودًا . وإذا ما أضحى هذا سمتًا وشعارًا ومبدءًا لكل مسلم ، فإنّ هذا يقذفُ في قلوبِ أعدائهم الرَّهب . فلا تحدث أعداءَ الإسلامِ أنفُسُهم أن يفكروا مجرّد تفكير في إيذاءِ مسلمٍ ما .

والحثّ على إحالةِ الإرادة فعلاً يُصرَّفُ البيانُ عنه في القرآن الكريم كي ما يتقرر في النفوسِ ويكون المسلم على ذكر منه .

يقُول سبحانه وتعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (المائدة:٦)

أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة إرادةً يتحقق الفعلُ بها لا محالة .

وفي البيانِ عَن إرادةِ القراءةِ بالقراءةِ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (النحل:٩٨) هدايةٌ إلى أنّ ما إنْ تخطر في قلبِ المسلمِ إرادةَ القراءة إلا والشيطانُ له بالمرصاد ، فهو بحاجةٍ إلى أن يستعيذَ بالله تعالى منه في أول مرحلةٍ من مراحل إنتاج الخيرِ ذلك أنّ إرادة فعل الخير طاعة يُثَابُ المرءُ عليْها ، فإن صُرف رغم أنفه عن إنفاذ ما أراد كُتبَ له ثوابٌ كمثل ثوابِ الفعل .

روى البخاريّ في «الرَّقاق» من صحيحه بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ عَنِ النَّبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ :

قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

والشيطانُ جد عليمٍ بذلك ، لذا يترصدُ المسلم لا في فعلِه الخيرَ وإنجازه ، بل يترصّده في خطورِ إرادةِ فعلِ الخَيْرِ على قلبِه وهمّه أن يفعلَه ، لذلك يتخذ عدّته ليفسِد عليْه إرادتَه .

كلُّ هذه المعاني من فيضِ رحيميتِه سبحانه وتعالى ، وهو عطاءٌ عظيمٌ من عطاءات جمالِ ربوبيته جلّ جلالُه ، فله الحمدُ على كلّ نعمةٍ حمدًا يُرضِيه عنَّا .

وفي البيان بالفعلِ المضارع (أعوذ) دَلالةٌ عَلَى أنّ هذا أمرٌ مستمِرٌّ مُتَجدّدٍ ، كلّما فرغَ من صُورةٍ منه أنشأ صُورةً أخرى أعلى وأقوى ، فهو في تسنمّ وترقٍ من حالٍ في الاستعانة والاعتصام إلى حالٍ أرقَى وأرفع ، وأنَّه

لا يستكينُ ولا يغترُّ ولا يغفلُ ، وفي هذا من إقامة الشَّيطانِ في مقامِ التيئيسِ من أن ينالَ من المسلمِ وإن احتفل الشّيطانُ واحتشد لإيقاعِه في الغَفلَة أو فِي الثّقةِ بنفسِه .

وتلك معانٍ جليلةٌ في مقامِ هضم النفسِ والتواضعُ بيْن يدي الله سُبحانَهُ وتَعالَى .

والباءُ في (أعوذُ بالله) للإلصاق فهو يعلن التصاقَ لجوئه بكلاءةِ الله تعالى وحمايتِه من الشيطانِ ، ويُعلن المُسلِمُ المُتعَوّذُ تحصّنه بمنعة الله جلّ جلالُه من شرّ الشيطانِ وشركه .

استفتح الجملة بالفعل ، دون تأخيرِه وتقديمِ الجارِ والمجرور ، فلم يقل: بالله أعوذ ، لأنّ في تقديمِ الفعلِ (أعوذ) استهلالاً بالإعلان بحاجتِه وافتقارِه ، وأنّه يلتجئُ إلى من يحميه ، فيستشرفُ السَّامع إلى أن يعلم من ذا الّذي يعوذ به ، فيأتي قولُه ﴿ بِٱللَّهِ ﴾ (النحل:٩٨) فيقع في القلبِ موقِعًا مكينًا لأنه جاء من بعدِ تشوّفٍ ، واستشرافِ نفسٍ .

وفي ذكر اسمه (السميع العليم) تذكيرٌ بأنّه يسمعُ استجارة من يستجيرُ به ، ويعلمُ صِدقَه ومقدارَ يقينِه وإخلاصِه فيما يدعو بِه ، وهو السميعُ بخفايا كلم الشيطان وهو العليم بلطيف مكرِه ، وهذا يستلزم قدرتَه ، فإن الإنباء بإحاطة علمه تعالى إنباء بطريقِ اللزوم بإحاطة قدرته ، ولذا تجد البيانَ القرآنيَّ يختم كثيراً من الآيات بأنّه بكل شيءٍ عليم ، ويختم كثيراً بقوله إنّ الله على كل شيءٍ قدير ، فهنالك تلازم بيْن الوصفين: عليم ، وقدير .

وفي هذا ما يملأ قلب العبدِ يقينًا وطمأنينة أنه إنما يستعيذ بمن هو السّميع العليم بكلّ مكايدِ الشيطانِ القديرُ على إبطالِها وعلَى الوِقايةِ منها ، والقديرِ علَى ردها في نحرِ صانعِها .

وكلمة «الشيطانُ» مشتقةٌ إمّا من الشَّطنِ وهو البعدُ المديد ، سُمي بذلك لبعدِه عن طاعة الله تعالى منذ أنْ أمر بالسجودِ لأبينا آدم عليْه السّلام ، فقال مستكبرًا : ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ (الأعراف:١٢) . ﴿ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴾ (الإسراء:٦١)

أو مشتق من الشيط أي الاحتراق ، لأنّه لمّا استكبرَ طرد من رحمة الله سُبحَانه وتَعالى : ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ (الأعراف:١٨) ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾ (الحجر:٣٤) (ص:٧٧) [1]

---

(١) ويذهبُ أبُو الحسنِ الحَرالّيّ (ت: ٦٣٨هـ) إلى أن كلمة «الشيطان» منحوتةٌ من الأصلين : شطن ، وشاط ، فهو لما ابتعد عن طاعة الله تعالى شاط بغضبِه . يقول : « {الشَّيْطَانُ} هو مما أخذ من أصلين : من الشطن وهو البعد ، الذي منه سمي الحبل الطويل ، ومن الشيط الذي هو الإسراع في الاحتراق ... ، فهو من المعنيين مشتق ، كلفظ الإنسان والملائكة».»

تراثُ أبي الحسن الحرالّيّ في التفسير تحقيق الخياط ، ينشر : منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـ الرباط ، سنة ١٤١٨ هـ الطبعة الأولى . ١٩٦/١، ١٩٧م

وانظر : نظم الدرر للبقاعي طبع : دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة : ٢٨٧/١

وإذا ما كان الله تعالى قد سمى هذا الجنس من ولد « إبليس» الشيطان» فإنّه سمَّى الجنس من ولد « آدم» عليْهِ الصّلاةُ والسّلام «الإنسان» .

وإذا ما كانت كلمة «الشيطان» دالةً على الشطن والبعد عن رحمةِ اللهِ تعالى ودالة على الاحتراقِ بغضبِه فإنَّ كلمة « إنسان» إنْ كانت مشتقةً من (الأنسِ) فإن هذا فيه إبرازٌ لسمة في فطرةِ هذا الجنس ، وهو أنّه يأنس بغيرِه من جنسِه ، فهو كائنٌ اجتماعيّ لا تستقيم حياتُه متفردًا متوحشًا من الآخرين ، وفي هذا دعوةٌ له إلى أنْ يحرصَ على تحقيق ما يقُيم هذه الخاصية : خاصية الاجتماع على الوجه الأنفع ، فلا يكون منه ما يخدشُ كمال هذه النعمة ، ولذا حرَّم الله تعالى الاعتداء ==

ونعت الله سُبْحَانَه وتعَالى الشيطان بنعتٍ كاشفٍ عن حالِه ، وحال فعلِه وكيدِه « فقال » الرَّجيم » أي المرجوم ، من الرَّجم ، وهو الضربِ بالحجارة ، فهو مرجوم مطرودٌ من رحمةِ اللهِ تعالى ، وفي هذا من إتراعِ قلبِ المستعيذ بالثقة ، وإفعامها بالطمأنينة ، وأنَّ هذا الشيطان هو في أصلِه مطرود من رحمةِ الله تعالى لا نصيرَ له من الله تعالى .

﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (المجادلة:١٩)

==على الآخرين وتوعدهم بقولِه سُبحَانَهُ وتَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (الهمزة:١) وجاء البيان النبوي مبينًا قوله تعالى (همزة لمزة)

روى البخاريّ في كتاب (الإيمان) وغيره من صحيحه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رضي الله عنهما ـ عَنِ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ « **الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ** ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » ورواه مسلم في كتاب (الإيمان) من صحيحه .

فقوله تعالى : (الهمزة) هو من آذى النَّاس بلسانه وما كان من جنسه ، وقوله تعالى: (لمزة) هو من آذاهم بيده وما شاكلها والمسلم من تطهّر من هذين فلم يكن منه شيْءٌ .

وإن كانت كلمةُ (الإنسان) مشتقة من (النسيان) فهذا يشيرُ إلى سمةِ ضعفٍ في هذا الجنسِ عليْه أن يتخذ حذره منها ، وأن يعمل على اتقاءِ ضُرّها ، فلا يثق بمحفوظِه ، ولا سيّما في ما هو عظيم الشّأن وشديد الأثر ، فعليْه أن يتخذ من وسائل التوثيق ما يقيه ضُر هذه النقيصة ، وهذا أيضًا يلفته إلى أنّه ضعيفٌ بحاجةٍ إلى ربّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فلا يأنسُ بنفسِه ، وبذلك يبقَى على ذكر من ربّه تعالى .

ويذهب الحرالّيّ إلى أنّهُ منحوتٌ من أصلين : الأنس والنّسيان ، فهو يأنسُ بنعمة الله تعالى عليْهِ وينسى المنعم جلّ جلاله ، فلا يشكره عليها ، ولا يوظفها فيما خلقت له على النحو الذي يرضي من خلقه ورزقَه بها سُبحَانه وتعالى ..

وممّا يحسن استذكارُه أن السنّة البيانيّة للقرآن أن يأتي بكلمة « الإنسان » في سياق المذمة ، ولا يأتي بها في سياق محمدة ، بينما يأتي بكلمة « بني آدم » في سياق محمدة أو رضا أو تعليم .

وهذا من فيضِ رحمةِ الله تعالى وربوبيتِه ، ودفاعه عن الذين آمنوا ، ولذا قال بعد أن أمر بالاستعاذة به من الشيطان الرجيم عند إرادةِ قراءةِ القرآن :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾

(النحل:٩٩،١٠٠)

ولمَّا كان هذا المعنى ذا أهمية بالغة في حياةِ المسلم لم يكتفِ القُرآن بأن قال : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فيفهم ضمنا أنّ له سُلطانًا على من عداهم وهم الذين يتولونه والذين به مؤمنون بل جاء بما يُعلم بطريق دلالة المفهوم مصرحًا به ، ليكون الإثبات والنفي في درجة واحدة من مستوى التصريح به ، فيعلم أنَّهما على درجةٍ سواء من أهمية الإنباء بهما ، وهذا منهج من مناهج الإبانة في القرآن . فقال « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ».

وجاء به في أسلوبِ قصر بـ(إنّما) ليمكِّن هذا المعنى في النفسِ فضل تمكن ، فيكون لها من العزيمة الفتية ما تفرُّ به من أن تكون من الذين يتولونه . وهذا هو الذي يهدف إليه الهديُ القرآنيّ .

وجاء بـ(إنّما) إشارة إلى أن هذه الحقيقة أهلٌ لأن لا يتوقفَ في قبولها ، كما هو الشّأن في البيان بـ(إنّما) ولاسيّما أنّه ممهد لها بما قبلها من النفي .

وجاء البيانُ الصريح بما كان قد فهم بطريقِ المخالفة مما سبق مفصُولاً (غير معطوف) عمّا قبله فلم يقل (وإنما سلطانه) إيذانا بأنّ معنى هذه الجملة مؤكدٌ للمعنى الجملةِ قبلها : ليس له سلطان على الذين آمنوا . وهذا التأكيد نازلٌ على مقتضِى أنَّ من طبع الإنسان أنه لا يحبُّ أن يكون لمخلوقٍ عليْه سلطان . فأكدَ له هذا المعنى وقدَّمه . كل ذلك يمنح النفس الإنسانية فيضًا من التثقيف والترويضِ والتهذيب .

* * *

التأويـل البيانـي لنظم قَـولِـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:١) :

كلُّ سُورةٍ من كتابِ الله تعالى خلا سُورة (براءة :التوبة) تستفتح في المصاحفِ التي بِأيدِي المُسلمين كافّةً بقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : **﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾** (الفاتحة:١)

كان استفتاح سُورةِ «المسد» بهذه العبارة **﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾** (الفاتحة:١) من فيضِ عطاءات الرُّبوبية ، ومن جليل النعم وجميلها ، إنّه استفتاح يَلفتُ إلى أَن يتبصّر القارئُ والسامعُ إِلَى ما تعلّقَ بِه الجارّ والمَجرورُ ، فإذا بِه يجدُ في حالِه بيانًا لما يتعلّقُ بِه ، فيفهمُ أنّ الله سُبحانَه وتعالَى يهدِيه إلى أنّ يكونُ له من ذكرِ اسمه تعالى في ما يقُوم بِه ما يتوسّل بِه ليحقّق مراده على الوجهِ الذي يريدُ ، فإذا كان قارئًا ، فإنّ حالَه هذا يحملُه إلى أن يُقدّر ما يتعلّقُ بِه الجار والمجرور ، أقرأ بسم الله أي أقرأ مستعينًا بذكر الله ، فهو من قبيل الاستعانة بالعملِ الصالح لبلوغ ما يريد ، وتعليم العبد التوسل إلى تحقيقِ مراده بالطاعة ، ومِن عليّ الطاعات وشريفها ذكر اسمِ اللهِ تعالى .

هكـذا يسـتفتح البيـان القرآنـيّ معلّمًـا السـبيلَ إلى الإحسـانِ في تحقِيـقِ الأعمال . فهو دعوةٌ ربانيّة إلى أن يتخذ العبدُ كلَّ الأسباب التي تجعلُه مُيسرًا إلى ما يعملُ ومعانًا علَى تحقِيقِ مراداتِه ، وفوقَ هذا فيه حملٌ له على الإقرار بالعجزِ عن تحقيق مراداتِه بنفسه ، والإقـرار بأنّـه لا سـبيلَ لـه إلى شـيْء إلا بعونٍ من الله تعالى الذي يتوسل إلى تحقِيقِه بذكر اسم الله تعالى .

هكذا يبدأُ البيانُ القرآني مقيمًا القارئ في مقام العبودية الذي هو أشرفُ مقامٍ ولذا كانت **﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾** (الفاتحة:١) آيةً من أم الكتابِ الذي يؤولُ إليها كلّ معنًى من معانِي الهُدى في سائر السور ، ولو أنّا عمدنا إلى المجاهدةِ في الاجتهاد لبيان المعاني التي تؤول إلى معنى **﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ**

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في سائرِ سُور القرآن لما وجدنا في العُمر والجهد متّسعًا يفِي هذا بعضَ حقّه ، فإنّ الأمر جلل ، فمرجعية المعاني في سور القرن الكريم إلى معنى ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مرجعية وسيعة رفيعة القدر عصيّةٌ على الإحاطة .

* * *

وإذا ما كان مِن أهلِ العلم من يذهبُ إلَى أنْ يقدّرَ ما يتعلّقُ بِه الجارّ والمجرور من جنس العمل الذي يستفتح به هذا القول ، فيَستفتح الآكلُ على تقدير: آكل باسم الله ، ويستفتح القارئ على تقدير أقرأ باسم الله ....إلخ فإنَّ منهم من يقدِّره ، أيْ أبدأُ عملِي بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ ..

وفي تقديرِه عامًّا ما يجعلُ هذه الآية كشِعار المسلم في كلِّ فعل ، فأيَّ فعل تستفتح أنتَ تقيمُ في قلبك هذه الحقِيقة ، وتجريها على لِسانك ، فيكونا : قلبُك ولسانُك رطبين بها ، فأضحت هذه الآيةُ بمثابةِ ما هو أمثالٌ عند العرب ، لا تغيّر صِيغتها بتغيّرِ سياقاتها . فهي بمنطوقها هذا تجرِي في القلبِ واللسان .

هذا العطاءُ حقّقه عدمُ تعيينِ مُتعلَّقِ «الجارّ والمجرُور» ، فكان طيّه أبركَ عطاءَ من ذكرِه ، فرُبّ غائبٍ أفعلُ من حاضرٍ ، وأبرك عطاءً . فاعتبروا يا أولي البصائر .

وفي طيّ ما يتعلّقُ به الجارُ والمجرور تكثيرٌ للمعنى في نفسِ المُتدبّرِ ، فهو من قبيل إيجازِ الحذف ، وإنّما كان كذلك ؛ لأنّ ما حُذف يُمكن أن يصرّح بِه ، فعُدلَ عن التَّصريحِ بِه فأفاد ذلكَ معنًى إضافيًّا ، فكان هذا من الإيجازِ .

أما إذا كان المحذوفُ ممَّا لا يُصرَّح بِه في نهجِ العربية ، بل هو مبنيٌّ على الطَّيّ كما في قولِك : «محمدٌ عندي» أي كائنٌ عندي ، فطيّه لا يُعد من

الإيجـازِ ، لأنَّه لَمْ يُعدل عن ذكـرِه إلى طيِّه لمقتضٍ اقتضاه . فإنَّ الحـذف لا يكون إيجازًا إلا إذا كان تركه إلى الذكر ممكنًا عربيّةً ، واقتضَى مقتضٍ أن يكونَ مطويًّا ، فَطوي .

وإن كان الحذفُ مما لا يُمكن تركه عربية ، فهذا ليس مـن الإيجـاز ، بـل تلك سنةُ الإبانةِ بالعربيّة ، ولا يُنسبُ ذلك إلى المتكلِّم ، بل إلى حكمةِ اللغةِ نفسِها ، وَفرقٌ غير خفيّ بين بلاغةِ اللّغةِ وبلاغةِ المتكلّم باللّغةِ .

* * *

اختلاف العلماء في موقع تقدير المتعلق :

أهل العلمِ منهم من يُقدر متعلّقَ الجـار والمجـرور هنـا مقـدمًا كمـا هـو الأصلُ في أنَّ يكون المتعلّق متقدمًا على ما يَتعلقُ بِه ، فهو أسبقُ وجودا مما يتعلّقُ بِه ، فحقّه أن يكون أسبق ذكرًا إلا إذا اقتضى مقتضٍ تأخيرَه .

ومنهم من ذهب إلى أنّه وإن كان الأصلُ كما قالوا إلاَّ أنّ المعنى والسِّياق قد يحملُ إلى أن يُقدم الجارُ والمجرور ، لمـا في تقديمـه مـن فائـدة جليلـة تتمثل في تحصـيل معنـى التخصـيص الحصـريّ ، فيُفيـد أنـّه لا يبتـدئُ إلا باسمه ، فهو من قصر الموصُوفِ على صِفة ، قصر الابتداء علـى أنـه متلـبسٌ بذكر اسمِهِ سُبحانه وتعالى .

وهذا يلزمه أنّه لو كان هنالك إلهٌ آخر من دونِه أو معه ، لكان جديرًا بأن يُشارِكه في أن يبتدأ باسمه ، فآل المعنى إلى أنه هُو وحده الله ، لا شريك له. وهذا هُو تجريد التوحيد ، وهو قاعدةُ كلِّ عملٍ صَالحٍ ، وهو مفتتحُ كلِّ أمـر المسلم ومُختَتَمُهُ .

وهذا يزيدُه جلاء في قلبك أن تسمعَ ما حكاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن سَحرةِ فرعون :﴿ **فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ**

﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (الشعراء:٤٤) تبصر قولهم ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم لا يعلمون علم يقين أنّه ذو عزّة لا تقهر ، وبرغم من ذلك جعلوا أمرهم بعزّته ، فكيفَ بالمسلم ؟ أليس هو الأجدر بأنْ يَجعلَ جميعَ أمره مصحوبًا بذكر اسم ربّه سُبحانَه وتَعَالَى . لهذا قلتُ : إنّ قُوله سُبْحانَهُ وتَعَالَى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مآل المعنى فيه هو (لا إله إلا الله) وأنّه لهذا كان جديراً بأن يكون مفتاح كل سورةٍ ومبتدأ البيانِ فيها .

* * *

دلالة (الباء) في (بسم الله) :

«الباء» التي هي حرفُ معنى ، لا حرف مبنى في لسانِ العربيّة موضوعةٌ للدَّلالة على معنى «الإلصاق» أي أن ما تعلقت به ملصق بما دخلت عليه .

وهذا المعنى هو المعنى الرئيس ، بل إن سيبويهِ يذهبُ إلى أَنَّهُ لا يُفارقها ، وإن قضى سِياقٌ أن تدلَّ على غيرِه ، فهو مع هذا باقٍ معه لا يُفارِقُها وعبارتُه : «فما اتّسع من هذا في الكلام فهذا أصله» أي ما جاء من دلالتها على معانٍ أُخر على سبيلِ الاتساعِ فالإلزاقُ والاختلاط أصلُ هذا المعنى الاتساعيّ . وقد يُعبر عن الإلصَاق بالمصاحبة ، وباء المصَاحبةِ عند أهل العلمِ هي التي يَصلُح موضِعها (مع) ويُغني عنها نصب الفعل على الحالية .

والمصاحبة في البسملة مصاحبة ابتداءِ الفعلِ بذكر اسم الله تعالى الدَّال على ذكر جلالِه وجمالِه وكمالِه وكل ما يليقُ به في القلبِ . وربّما كان البيان بكلمة «المصاحبة» أعلى في تأويل الباء فِي ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ .

* * *

إشراب معنى الإلصاق معاني أُخر :

وإذا كان معنى الإلصاق قائمًا في «الباء» حيثُ حلت فإنّه قد يكونُ متفردًا بدلالتها عليها ، لا يخالطه غيرُه من المعاني ، وقد يكونُ مُشربًا معنى آخر استدعاه السياق ، فكان فيها حينئذٍ بمنزل الضيف على مضيفِه (الإلصاق) فهي لا تتخلَّى قطُّ عن معنى الإلصاق في أيِّ سياقٍ قامت فيه . فحرف المعنى حين يُشربُ معنى آخر غيرَ الذي وضع له ، هو لا يتخلَّى عن المعنى الذي وضع تخليًا كاملاً ، بل يبقَى وإن أفسحَ المعنَى الأصيل (المضيّف) للمعنى الضيفِ الذي استدعاه السياق ، فيقدمه ، فيكون أسبق ورودًا على القلبِ ، وأظهر إدراكًا ، فهما معًا حاضران إلا أنَّ المُضيّف (المعنى الذي وضع بإزاء الحرف وضعًا شخصيًّا كما يقول أهل العلم) فآثار المعنَى الضيف بالظهور وسرعة إدراكه .

قلت هذا ليكون طلاب العلم على أنّ دلالة حرفِ المعني على معانٍ متعددة متنوعة ، إنما هي دَلالة ليست سواءً ، كلاَّ سيبقى المعنى الرَّئيس الذي وُضِع له هذا الحرف حاضرًا أيًّا كان الذي يقاسمه الحضور في دَلالةِ الحرفِ .

وهذا المعنى الموضوع له الحرف (المعنى الرئيس : المُضَيف) لا محالة سَيَرعَى حق الجوار ، فكيف بحق المخالطة ، إنّه لا محالة سيتأثر بحالِ المعنى الضّيفِ لأنَّه خالطه ، فيُحسنُ صُحبته وضِيافته ورعاية لحق الجوار فكيف بالمخالطة ، فيتراحب له ، ويترابح بِه ، فيتأثر المعنى الرئيس بشيءٍ من خصائص المعنى الوارد ضَيفًا[1] .

---

(١) المتبصّر بحال تلاقِي الأصوات الصائتة (الحركات) والصّامتة (الحروف) في بنية الكلمة العربية سيجد أمرًا جديرًا بالالتفات ، يتمثلّ في حسن العلاقات بين هذه =

وبهذا يتنوع معنى (الإلصاق) في (الباء) بتنوع ما يستدعيه السياقُ من المعاني فيستضيفه الإلصاق ، وبهذا تتعدد المعاني ، ويتفنن معنى الإلصاق بتنوع السياقات والمقاصد وتفننها وهذا يبرز لك اتساع الأمر ، وأن ادعاء الإحاطة بمعانى حرفٍ واحدٍ في سياقاتِه في كتاب الله تعالى أمرٌ لا يكون . أنّه وجه من وجوه إعجازِه البلاغيّ ، فلو رغبُ واحدٌ من أولي العزم من أهلِ العلم الماجدين أن يستقرأَ استقراءً تامًّا معاني (الباء) في كتابِ الله تعالى لأقام نفسَه مقام الحرج والعجز .

=الأصَوات ، فهي تتراحبُ فتترابح ، وتجد الأصوات مؤثَرةً في ما صاحبها ، ومتأثّرةً بها ، ولهذا تَجدُ علمَ التصريف ذا الاختصاص بصناعة الكلمة العربية من أدقّ العلوم في مراعاة العلاقاتِ الصوتية بين مكونات الكلمة ، وتجد في قضايا الإعلال والإبدال أصولاً في هذا جد جواد ، لو تبصرها الناس ، واتخذوا منها دروسًا عملية في علاقة بعضِهم ببعض لوجدت الحياة فيما بيننا قد اتسمت بالاتساق والانسجام ، فَتنتشرُ في الحياة نعمةُ «الجمال» ذلك أنَّ عمود الجمال بين الأشياء هو انسجامها ، وكل أمّة عشِقتِ الجمال معنويه وحسيّه كانت أمّةً عزيزةً ماجدة .

إننا ـ طلاب العلم بلسان العربية عامة ، ولسانِ بيانِ الوحي خاصة ـ لمقصرون كثيراً في الانتفاع بعلم التصريفِ بل وبالحكمة الاجتماعية في علم نحو العربية في بناء الكلمة والجملة والفقرة والمعقد والنصّ .

إن في هذا من الأسرار ما يُمكن أن يشكِّلَ نظرية معرفية سلوكية ذات فلسفة في الحياة بالغة الدّقة والإحكام والحكمةِ .

وهذا أمرٌ جديرٌ بأن تعنَى بِه بحوثُ أهل العلم وطلابِه ، ولاسِيما بحوث الدّراسات العُليا والترقيات الوظيفية لأساتذة الجامعات ، بدلاً من هذا الغثاء الممجوج المجترّ الذي يدفقُ بين رؤوسنا فتضيقُ صدورنا فوق ما هي مترعةٌ ضيقًا وكمدًا .

«الباء» هنا تُفيد مصاحبة الفعلِ ذكر اسمِ الله تعالى[1].

وذكر اسمه في حقيقة أمرِه الذي يسترضى ، والذي حرى بكلّ مسلم أن يكون عليْه الحريصَ ، وأنَ يكون له منه نصِيب وافرٌ ـ يَعنى حضُوره في القلبِ حضُورًا يتجلَى أثرُه على الجوارح ولاسِيّما اللسان ، فإذا به رطبٌ بترديدِه . فالذكر في الإسلام ليس شقشقة ألسنة . كلاَّ . اللسان ما هُو إلا مجلَى لما هو في القلبِ . وتلك حقيقةٌ يتوارثُها العقلاء :

إنَّ الكلامَ لِفي الفُؤادِ وإنّما جعلَ اللسان علَى الفؤادِ دليلا

* * *

• القول بأنَّ (الباء) في الآية للاستعانة :

وقد يذهبُ بعضُ أهل العلم إلى أنَّ (الباء) فِي ﴿ **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ** ﴾ هي «باء» الاستعانة ، والمعنى أبتدأُ عملي مستعينا بذكر اسم الله ، وقال جاء في الذكر الحكيم : ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾

(الأعراف:١٢٨)

﴿ **وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ** ﴾ (البقرة:٤٥)

---

(١) يقُول الطيبيّ : «باء المصَاحبَةِ تقتَضِي الاستدامةَ فِي قصدِ المتكلّم ، فمعناه كلُّ حرفٍ ممَّا أتكلّم بِه بعد «التسمية» أقدّرُ فِيه «بِسمِ اللهِ» ففيهِ تَعميمُ الفعلِ معَ «التّسمية» ، كما فِي قَولِه : «﴿ **تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ** ﴾ (المؤمنون:٢٠) أي تنبتُ ثَمارها ، وفيها الدّهنُ» (فتوح الغيب : حاشِيةٌ على كشّافِ الزمخشريّ ، شرف الدين الطيبيّ (ت: ٧٤٣) جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم . أشرف على طبعه محمد عبد الرحيم سلطان العلماء ٦٨٩/١

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

(البقرة:١٥٣)

وجاء في بيان النّبوة فيما رواه الترمذي في (صفة القيامة) من جامعه بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلّى الله عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم يَوْمًا فَقَالَ :

« يَا غُلَامُ إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ :

احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ .

إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ . رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » .

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي . حديث رقم (١٥١٦) وفي صحيح مشكاة المصابيح . حديث رقم (٥٣٠٢)[١] .

---

(١) من معاني الهُدَى في هذا الحديث النبوي الكريم أنّه يفيضُ رحمةً ورأفة من سيدنا مُحمّد صَلّى الله عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم على أمّته فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم : يرسُم لهم طريقَ العزّة والمنعةِ من كل مذلّة ، والمنعة من الاحتياج لأحد غير خالِقِهم .
ولو أنك تبصّرت في بيانِه صَلّى الله عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم رأيت حرصَه البالغ على ألا ينشغل قلبُ المسلِم بأي أمرٍ من أمور هذه الدنيا عما خلقَ له هذا القلبُ . هو حريصٌ على أن يُقيم في قلوبنا الطمأنينة ممَّا يخافُ منه الناسِ . يؤكد لنا أن العالم كلّ العالم لا يملك أن يلحق بمسلم ضُرًّا لم يكتبه الله تعالى ، فلم الوجل من أحدٍ من خلقه ؟!!! إنهم أجمعون أدوات يُحقق الله تعالى بهم مراده .

وهذا لا يصح الاستدلال به على أنّ (الباء) في هذه الآيات وفي الحديث الشّريف للدلالة على الاستعانة ، لأنّ هذا معلوم ممَّا تعلقت بِه (الباء) : ﴿ ٱسْتَعِينُواْ ﴾ و«الباء» هنا للتعدية ، ولذا يُستغنى عنها ، ويبقَى معنى الاستعانة قائمًا ؟

ومن معاني الاستعانة في دلالةِ (الباء) عليها في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي أطلبُ عون الله تعالى بسبب طاعتِي له بذكرِهِ ، فَهُوَ ضَربٌ مِن التَّوسّل بِالعملِ الصَّالِح ، وَهُوَ مَشرُوعٌ .

* * *

وجه الإتيانِ بكلمة اسم :

وجاء البيانُ بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ ، ولم يقل بالله الرَّحمنِ الرّحيم ، وإنّما جَعل مدخولَ (الباء) كلمة (اسم) فلفظ (اسم) عند العرب كلمةٌ جُعلت دالَّة على ذاتٍ حسية أو معنوية شخصًا أو نوعًا .

والاسم يطلقُ ويرادُ اللفظ الدالّ على المسمّى ، وقد يُطلق ويراد المسمّى ألا ترى أنّ الله تعالى قد أمرنا أن نسبحه وأن نسبح اسمه ، وأن نسبح باسمه ، فقال : ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾

(الفتح:٩)

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلأَعْلَى ﴾ (الأعلى:١)

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحاقة:٥٢)

وإذا ما كان ذكرُ اسمِه تعالى مُصاحبًا استفتاح كلَّ فعلٍ ، ولا سِيّما شريفُ الأفعال ، كتلاوةِ القُرآن ، فإنَّ هذا الذّكرَ هُو آية ذكر اللهِ جلّ جلالُه في القلبِ وَمجلاها ، وهو أمرٌ غيبيّ لا يطَّلعُ عليْه غيرُ الله سُبحَانه وتعالى ،

فجعلَ ذِكرَ اسمِهِ عزّ وجلّ باللّسانِ آيةً علَى هذا الذّكر الغيبيّ في القلبِ والمنبئَ عَنه فكلّ مسلم يجعلُ لسانَه رَطبًا مِن ذكرِ اللهِ جلّ جلالُه ، إنما ذلك من قلبٍ رطبٍ مِن ذكره سُبْحَانَه وتعالَى

* * *

وجاء نعتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنّه الرّحمن الرّحيم إبرازًا لجمالِ الربوبية مقارنًا لإبرازِ جلالِ الإلوهية في قولِه : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ فقولُه هذا وإن كان جمالُ الرُّبوبيّة فيه قائمًا إلا أنَّ جلالَ الألوهية أسرع خطورًا ، وأظهر إدراكًا ، لما يدلّ عليْه تفرّده باستحقاقِ أن يُستصَحبَ العملُ بذكر اسمه أو يستعان عليْه بذكر اسمه من جلالِ الألوهية .

وفي ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أيضًا يحضر جلالُ الألوهية ، لأنّه إذا ما كان هو الرَّحمنُ الذي اتسعت رحمته ، وهُو الرّحيم الذي يفيضُ بخاصّ الرّحمةِ على الخاصِّ من خلقِه ، فإنه يلزمُ مِن هذا أنه عزيزٍ لا ينازع ، وهذا مِن جلالِ الألوهية كما لا يخفَى ، وبهذا يتبدّى لك أن صدر الآية : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ يجمع بيْن جلالِ الألوهية وجمالِ الرُّبوبيّة إلاّ أنَّ جلالَ الألوهيّة أسرعُ حضورًا للقلب ، وعجز الآية : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يجمعُ بيْن جلال الألوهيّة وجمالِ الرُّبوبيّة أيضًا إلاّ أن جمالَ الرُّبوبيّةِ أسرعُ حضورًا للقلبِ . فيقيمُ العبدُ أمرَه بين رهبٍ ورغبٍ .

في الرّهبِ ما يُحاجزُه عن أن يعصَى أو أَنْ يغفلَ .

وفي الرَّغبِ ما يُحاجزه عن أن ييأسَ أو أن ينكص ، فيبقَى العبدُ مَجذوبًا بيْن المقامين ، حتّى إذا ما قاربَ الرَّحيل كان منزلُ الرّغبِ والرَّجاء عليْهِ أغلب . فيحبّ لقاءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيُحبّ الله تعالَى لِقَاءَه .

وفي تقديمِ ذِكرِ (الرّحمنِ) على (الرَّحيم) وجوه منها أنّ (الـرَّحمن) هـو ذو الرَّحمة العامّة ، وهي الّتي بها يحيا العالمون ، ولذا لم يُوصف بِـه معرّفـا بأل أو غيرَ مضافٍ أحدٌ من العـالمين ، وقـد أوردَ المُرتـدُّون عِـن الإسـلام : (رَحمان اليَمامةِ) فِي مُسيلِمة الفاجر عليْهِ مِنَ اللهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَستحقّ .

و(الرّحيم) هُو ذُو الرّحمـة الخاصّـةِ الَّـتي تكـونُ لأهـلِ الهدايـةِ والتَّوفيـقِ والسّدادِ ، فقدَّم العامّ على الخاصِّ .

وقد جاء وَصفُ رَسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم بأنَّـه (رَحيمٌ) : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:١٢٨)

وفي تقديم العامّ على الخاصّ ترقٍّ في التودّد إلى العالمين ، فهـو يُغرينـا بالإيمانِ به ، وبالتَّزلُّفِ إليه .

هو سُبحانَهُ وَتَعَالَى ينبؤنا أنّ له رحمة عامَّةً كلّ العالمين ، سواءٌ مَن تعبّدَ ومن تبَّعّد . كلٌّ له من هذه الرَّحمةِ نصيبُه ؛ لأنَّه عبدُ الله تعالى قَدَرًا ، فلعلَّـه يتبصَّرُ في هذا ، فيكونُ عبدَه حَسَبًا ومَسلَكًا وتعبُّدًا ، فتكونُ له هـذه الرَّحمـةُ الخاصّة فوقَ التي كانت له قبل .

إنّـه فيضٌ من التودّد الإلهي لعبادِه أن يقبلوا على عبادتِه التي لايعود نفعها إلا عليْهم : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ (الأنعام:١٠٤) ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ (يونس:١٠٨) ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ (فاطر:١٨) ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ (فصلت:٤٦)

واسمُه (الرَّحيم) لم يأت مفردًا عن اسم آخر من أسماءِ الله الحسنى ، بـل كان دائمًا مسبوقًا باسمٍ ، وهو الأغلب ، أو سابقًا ، وهو الأقـل ، بينمـا اسمـه

(الرحمن) فقد جاء مفردا غير مقـرون باسمٍ آخـر من أسمـاءِ الله الحسـنى ، ولا سيّما في سُورة (مريم)

* * *

وجه عدمِ مشابهة سُورةِ (المســد) ســورة (براءة) في عــدمِ ذكر ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:١) :

جاءت هذه الآية في فاتِحة سورةِ (المسد) على الرغمِ مَن أن السَّورةَ كلها رهبٌ ونبأ عن سوء عُقبَى أبي لهبٍ وزوجه ، وظاهر الأمر أنّ هذا لا يناسِبه الاستفتاح بذكر الرَّحمة العامَّـة والخاصّـة ، فكـان حـرِى أن تعامـلَ مُعاملـة سورة (البراءة: التَّوبة)

أمَّا ترك ذكر آية ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:١) في فاتِحةِ سُورةِ (براءة) فذلك توقيفٌ ، والقول بأنّ الحكمة في ذلك أنّـها سُورة العذاب ، وأنها السورة المنقّرة عن ما في قلوبِ المنافقين ، والسّورة المبعثِرة ، والمثيرة والبَحوث والحافرة ....إلخ إنما هو اجتهادٌ لا يكشف وجه ترك ذكر ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ذلك أنّـا نرى سوراً أخر فيها هذه المعاني وقد استفتحت بـ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ من هذا سورة (الماعون) وسورة (الكافرون) وهذه السورة : سورة (المسد).

وأنت إذا ما نظرت ألفيت أنّ السُّورَ الَّتي قِيـل إنهـا سـورُ عـذاب وتفتـيش وبعثرةِ ما هو مكنون في صدور المنافقين والكافِرينِ .... ونحو ذلك إنَّ ذلك هو في حقِيقته رحمة بمن هم أولى بأن يُعتبر حالهم في القصد : حـال أهـل الحق ، فما جاءت به سـورة : (بـراءة ، والمنـافقون ، والمـاعون ، والكـافرون والمسد) إنّما هو رحمة بأهلِ الحقّ ، لأنّ إنزال الفضيحة والعذاب وما شاكل

ذلك بأهل الباطل إنّما هو مِنْ فيض الرحمة بأهلِ الحق ، ومن لم يلحظ ذلك في مثل هذا يخسرُ كثيراً من فقه معانِي الهدَى في كتابِ الله تعالى

* * *

وأهل العلم على أنّ قولَه تعالى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تعليم للأمة أن تفعلَ ذلك في مفتتحِ أمرها ، كما علّم رسُولَه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم في أوّلِ ما نزل على قلبِه وسمعِه من الوحي فهو بمثابة أمرٍ غيرِ مباشرٍ بالأمر المباشر : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق:١)

وهذا لا يجعلُها خبريةً لفظًا إنشائيةً معنى ، لأنّ دلالتها على الأمر دلالة لزوميّة ، لم يُسق البيان لذلِك سوقًا أصليًّا ، بل هذا مستفادٌ من سياقِ الكلام ، وأساليبُ الأمر والنَّهي غير المباشر في الكتابِ والسّنة جد عدِيدة ، ومتنوعة ، بل هي أكثر وردًا فيهما من الأمر والنهي بالصيغ الموضوعةِ لذلك ، ومن ذلك وهو كثير الثناءُ على الفعلِ أو على فاعلِه ، ففيه التَّرغيبُ في فعلِه ، ومن ذلك الذّم للفعل أو فاعله ففيه الترهيبُ منه ، ومن ثَم تتسع صُور الأمر والنّهي غير المباشر في القرآن الكريم .

* * *

معانِي الهدى في قولِه تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١)

استهلت السورةُ بيانها بهذه الآيـة ذات الجملتين : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ و﴿ وَتَبَّ﴾ وهما جملتان فعليتان، وفعل «التبّ» في العربية دالٌّ على الخسران المفضِي إلى الهلاك ، فمن فسّر التباب بالهلاك ، فقد فسّره بلازم المعنَى[1].

---

(١) عُنيَ برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) بتفصيل دلالات الكلم التي جاءت من مادة (ت. ب.ب) على التقلبات الصوتية لأصُولِها ، مبينًا أنَّ هذه الكلم تدور على أصل واحد . يقُول :

« ومادة (تب) و (بتّ) ... تدور على القطع المؤدِّي في أغلب أحوالِه إلى الهلاك ، لأنَّ مِن انقطع إلى الأسباب معرضاً عن مسببها كان في أعظم تباب ، وربما كان القطع باستجماع الأسباب ، فحصل العوز بالمقاصد والمحابّ .... »

(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ـ لبرهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) ط . سنة ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي ـ ٥٦٩/٨، ٥٧١)

يُشير البقاعي إلى أنّ كل كلمة كانت أصولها (فاؤها وعينها ولامها) الباء والتاء هي كلمة يقُوم معناها على أصل القطع المفضِي إلى هلكةٍ بالغةٍ . وهو قد عرضِ للكلم على التفصيل مبينا عن معانيها وحضُور معنى القطعِ المفضِي إلى الهلاك .

والبقاعي ذو اعتناءٍ بالغٍ بهذا في تفسيره ، فقد يستغرقُ تتبعه كلماتِ مادَّةٍ واحدةٍ العديدَ مِن الصَّفحاتِ ، ممَّا يظنُّ منه القارئُ العَجِلُ أنّ هذا إقحامٌ يحسنُ أن يخلوَ منه كتابٌ لتفسير كلام الله تعالى جدُّهُ .

وهذا في ظاهره اعتراضٌ وجيهٌ إلاَّ أنّ من علمَ ما نُصبَ له تفسيرُ (نظم الدّرر) رأى أنّه اعتراض غيرُ قويم . ذلك أنَّ ما عُنِيَ به البقاعيُّ من النَّظر في التقلّبات الصَّوتيّة لبعضِ المواد اللّغويّة الّتي وردت لبَعضِ كلِمها في القرآن له علاقة رئيسةٌ بنظريّة التَّناسب القرآنيّ التي أقامَ عليها تفسِيرَه (نَظمِ الدّرر) وهي أنَّ معاني الكلم والجمل والآيات والنّجوم والمعاقد تدُورُ على أصل واحدٍ هُو مركزُ المعنى فِي السّورةِ كلِّها ، وهو ما يُسميه (المقصُودَ الأعظم). ==

وفي صوتِ الفعل من القوة ما يشِي بذلِك لمن ألقَى السّمع ، فإذا ما سمع المرء في أوَّل الأمر هذا الفعل : (تبّ) وكان ممن يعرفِ لما تسمعُ الأذن حقّه ، ألقَى كلَّ شيءٍ من عنايتِه المعنوية والحسيّة لينظر ما الذي كان له ذلك الفعلُ الرَّهَب ، وشأنُ كلِّ عاقلٍ إذا ما كُوفِح بِمرهِبٍ انزعج واستُفِزَّ ، مخافة أن يكونَ له منه ذَنوب ، وهو من هُو ، ألم يكن النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم إذا سمع صوت الرَّعد جَأرَ إلى الله سُبحانَه وتَعَالَى[1] مخافة أَن ينزلَ به أو بأمتِه ما يكرَه ، ونحنُ الآن إن سمعنا صَوت

==وهو هنا يبحثُ المعنى المركزيّ الحاضرَ في مدلولِ كلِّ كلمةٍ اشتركت مع كلمٍ أُخر في أصلِها وإن اختلف ترتيب الأصول ، وهذا أمرٌ جدُّ لطيفٍ وطريفٍ وهو الجديرُ بأن يُعتنى بدرسِه وتحقِيقه وتحريره ، إذ هو من الدِّراسات الَّتي ما يزالُ كثيرٌ مِن جوانبِها لم يُستزرَع بعدُ .

(١) روى الترمذي في كتاب (الدعوات : باب ما يقُول إذا سمعَ الرعد) من جامعِه بسنده عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ وَالصَّوَاعِقِ قَالَ : «اللَّهُمَّ لاَ تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ وَلاَ تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ». (حديث : ٣٧٨٣) قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

ورواه أحمد فِي مسندِه من حديثِ عبدِ اللهِ بن عُمر رضِيَ الله عنهما . والحاكم في المستدرك وصححه والنسائي في السنن الكبرى والطبراني في المعجمِ الكبير ،وابن أبي شيبة في مسندِهِ والبيهقي في «السنن الكبرى» وفي «الدعوات الكبير» والطبري في تفسيره الآية رقم (١٢-١٣) من سورة الرعد . حديث رقم (٢٠٢٥٩) ٣٨٨/١٦ : تحقيق أحمد شاكر

وصححه الذهبي ، وحسنه العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي . وغيره . واختلاف أهل العلم في تضعيفه حملني إلى الاستئناسِ به . ولولا ذلك لرغبت عن ذكره هنا .

الرعدِ فرحنا لما نؤملُه من سقُوط الغيثِ ، وكأنَّا أمنَّا مكرَ الله سبحانَه وتعالى . ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

(الأعراف:٩٩)

وثَمَّ فرقٌ بيّنٌ بيْن (التَّبّ) والخُسران : التّبُّ هو الاستمرارُ في الخُسران ، فهو خُسرانٌ لا يتناهَى : ينتقلُ صاحبُه من خُسرانٍ إلى خُسران أشدّ وأعتَى ، ولذا لا يستقيم بلاغةَ أن يُقال : خَسرت يدا أبي لهب وخسر ، لأنّ هذا لا يلائِمُ حال أبي لهبٍ فاستعمال فعل (التّبّ) هنا مطابِقٌ حال أبي لهبٍ في مسِيره ومصِيرِه .

ومن معاني الهُدى في الاستفتاح بهذا الفعلِ أنّه يحملُ إلى القلبِ المعافَى من داءِ الغفلةِ فيضًا من التَّرقبِ للعرفان بمن وقعَ عليْه ذلك الفعل ، فإذا ما أنبأَ بِه (يدا أبِي لهب) أدرك أنّ الذي كان من أبي لهبٍ أمرٌ جدُّ عظيم ، جعله مُستحقًّا لأن يقعَ عليْه هذا الفعل الرّهب ، ويستحقّ أن يُنبأَ الله سبْحانه وتعالى بِه في كتابه ، فيُتلَى إلى يوم القيامة ، ففي هذا الاستهلال تسجيلٌ لفداحةِ ما كانَ منه تَرهيبًا لكلِّ سامعٍ أن يَكونَ له من هذا المتَحدَّثِ عَنه نصيبٌ بل أدنى مقاربةٍ .

وجمهرةُ أهل العلمِ على أنّ قولَه تعالَى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ إن يكن خبرًا في لفظِه ، فهو دعاءٌ عليْه .

والقول بأنّ قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ دعاء والداعِي هو الله سُبحانَه وتَعَالَى والمدعو هو جلّ جلاله ، فيه نظر كيف يستقيم أن يَكون الدّاعِي هو المدعو؟ وما المقصِد من ذلك ؟

أليس الأعلى والأقربُ إدراكًا أن هذا إنباءٌ بأنّ ذلك له من اللهُ تعالى . وأنّه متحقّقٌ لا محالة ؟

للعلماء في مثلِ هذا مسالك أجملُ أهمها :

من تلك أنَّ هذا مسلكٌ من مسالك التَّعجيب من أحوال من يُتحدّث عنه وأنّه قام مقامًا يستحقُّ به الهلاك والخسران الكامل المبين ، فأعجبوا من ضَلالِه وحمقِه الذي بلغ به هذا المبلغ .

فهو في صُورة الدّعاء الذي هو إنشَاء طلبيّ ، ولكنَّه في حقِيقته تعجيبٌ أي حملُ السَّامعِ على أن يتعجّب من حالِه ، والتّعجيبُ إنشاءٌ غيرُ طلبيّ .

وفي هذا مِن التَّفظيع لحاله تنفيرًا من مقاربته ، فمن كان هذا حالُه ، فأنَّى لعاقلٍ أن يُقاربهم ، بَله أن يخادنَهم . إنَّ هذا له الضّلالُ المبين والمُبير .

ومن مَسَالِكِهِمْ فِيهِ أنَّ هذا تعليم المؤمِنِ أن يدعو عليه بهذا ، وهذا يفهم منه أنّ من دعا على أحد بمثلِ هذا ، فهو شديد النّفرة من حالِه وسياقِه ومَناخِهِ ، وهو إلى مباغضة منهاجه جدٌّ عظيم ، فكأنَّه يحملهم إلى متاركةِ مناهجه ومجانبته ، وأن يُعلنُوا بالدُّعاءِ عليه بِهذا كيْما تَشتدَّ المفاصَلة بينهم ، والدّعاء على الظَّلوم مِن أسلحةِ المؤمنِ الّتي لا تخيبُ ومن كره أو منع الدعاء على الظالمين فكأنه رضي بالظلم أو كأنه يعترف بأنه ظالم فكره أو منع من الدعاء عليه ..

* * *

ومنْ أهلِ العلمِ من ذهبَ إلى أنّ قَولَه تعالى ﴿ **تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ** ﴾ ليست بدعاءٍ عليْهِ ، بل هِيَ نبأٌ مِن اللهِ عظيمٌ ، هيَ إخبارٌ بغيب مُستقبل سَيقعُ لا محالةً ، فهو وجه من وجوه إعجازِ القُرآن .[1] وهو مسبوقٌ إلى هذا ،

---

(١) عبدُ الحميد الفراهيّ في تفسِيره (تفسِير نظام القُرآن) يجهرُ بأنّ السُورة كلها إنما جاءت نبأ بغيبٍ وليس فيها دعاءٌ ولا ذمٌّ لأبي لهب .

وسأعملُ إنْ شَاء الله من بعد هذا على تحرير نصّ تفسِيره سورة (المسد) كاملاً وعلى تعليقِ حواشيه ونقد مسائلِه خدمةً لطلاب العلمِ بكتابِ الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى =

فمِمَّا ذهب السُّهيليّ إليْهِ في «الرّوض الأُنُف» أن قوله تعالى ﴿ **تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ «لَيْسَ مِنْ بَابِ ﴿ **قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ** ﴾ وَلَكِنَّهُ خَبَرٌ مَحْضٌ بِأَنّ قَدْ خَسِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»[1]

وهو عندِي الأعلَى ، فالسُّورة إنباء بغيب في مفتتح الدَّعوة : إنباءٌ بهلاك رأس الكفرانِ ، مثل ما كانت سُورةُ (النَّصرِ) إنباءٌ بدولةِ الإسلامِ وسطوتِه علَى هذه الأرضِ ، وأن مَعقل الشّرك سيَخضع لِدولةِ الإسلامِ ، فتعودُ مكة من أمّ قرى الكفران إلى أمّ قرى الإيمان[2] .

=وعونًا لهم على تثوير مقالاتِ أهل العلم واتخاذ موقفٍ علميّ موضُوعيّ ممّا جاءَ عنهم وكنت قد بدأت في هذا حتى منتصف تفسير السورة ثم توقفت ، ولا أدري لم صُرفتُ عن استكماله ، والله المستعان على ما يرضيه .

(١) الروض الأنف للسهيلي (ت: ٥٨١هـ) (م.س) ١٧٦/٣

(٢) لعلماء أصول الدين حديثُ وسيع في شأن أن سورة «تبتْ يدا أبي لهبٍ» إنباءٌ بغيبٍ محقّقِ الوقوع ، وكانَ حديثهم هذا في وجه الإلحاد الذي كان يمارسُه ثُلّةٌ من المعتزلة وغيرهم من الفرقِ الضالة ، وعلى رأسِهم عمرو بن عبيد :

قالَ أبو بكر الفِريابيّ (ت٣٠١هـ) «سَمِعْتُ أَبَا حَفْصٍ عَمْرَو بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ : سَمِعْتُ مُعَاذَ بْنَ مُعَاذٍ ، وَذَكَرَ قِصَّةَ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ : إِنْ كَانَ ﴿ **تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، فَمَا عَلَى أَبِي لَهَبٍ مِنْ لَوْمٍ .

قَالَ أَبُو حَفْصٍ : فَذَكَرْتُهُ لِوَكِيعِ بْنِ الْجَرَّاحِ ، فَقَالَ : مَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ يُسْتَتَابُ ، فَإِنْ تَابَ ، وَإِلا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ». (كتاب القدر : للفريابيّ : أبو بكر جعفر بن محمد ابن الحسن بن المُسْتَفاض الفِرْيابِي ، تحقيق : عبد الله بن حمد المنصور ، ط . ١ ، ١٤١٨هـ ، أضواء السلف. وانظر: السنة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل (ت : ٢٩٠هـ) تحقيق محمد بن سعيد القحطاني ، ط . ١ ، ١٤٠٦هـ نشر : دار ابن القيم ـ الدمام ، ٤٣٧/٢

والإبانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن الأشعري (ت : ٣٢٤هـ) تحقيق : فوقية حسين محمود ، ط .١ ، ١٣٩٧هـ ، دار الأنصار ـ القاهرة . ص١٩٤، ١٩٥) ==

وقولُه تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ ناظرٌ إلى قَولِه تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر:٣) وإلى قولِه عزّ وجلّ في سورة (الكافرون) : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾

ومثلما كانت سُورة (النصر) ناظرة إلى قولِه تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ وإلى قولِه تعالى في سورة (الكافرون) : ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ .

وأهلُ العلم يلتفتون إلى توجيه ذكر «اليدين» في قولِه سُبْحانَه وَتَعَالَى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ ولهم في هذا كلامٌ وسيعٌ .[1]

==والاعتصام ، للشاطبي (ت : ٧٩٠هـ) تحقيق : سليم بن عيد الهلالي ، ط . ١ ، ١٤١٢هـ ، نشر : دار ابن عفان ، السعودية ، ٢٩٧/١

فالقول بأنه نبأ عن غيبٍ مستقبل دالٌ على وجهٍ من الإعجاز نظر إليه العقلُ المشبوبُ بنيران الفتنة والضلالة على أنه من الظلمِ المبين ، وأنّ أبا لهب ليس عليْه من بأسٍ في كفره .

كذلك يلبسُ أحفاد أبي لهب ، وينشرون إضلالهم . وما علموا أنَّ الله سُبحانَه وتَعَالَى قد هدَى أبا لهب وغيره النَّجدين ومنحه نعمة الاختيار ، فاختار سبيل الضلالة ، فما أرغمه الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى على غير ما اختار ، وأبو لهبٍ وأحفاده حين اختاروا الضلالة سبيلاً لم يكونوا يعلمون أنّ الله تعالى عالمٌ بأنهم سيختارون ذلك حتى يقُولوا إن علمه حملنا على ذلك ، فعلم الله تعالى بما سيكون ليس هو الحامل على الفعل .

(١) ينظر من شاء : تفسير الطبري . تحقيق شاكر . نشر : مؤسسة الرسالة . ط .١ ، عام ١٤٢٠ هـ . ٦٧٥/٢٤ وتفسير الرازي : نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت . الطبعة : الثالثة ـ ١٤٢٠ هـ . ٣٤٩/٣٢ والكشاف للزمخشريّ ، ومعه فتوح الغيب عليْهِ للطيبيّ ٦٢٣/١٦ والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ) .تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد . نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت . ط . ١ ، ١٤٢٢ هـ . ٥٣٤/٥ ونظم الدرر في تناسب الآيات والسّور للبقاعي (ت : ٨٨٥هـ) نشر : دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة . ٣٢٩/٢٢

والأعلَى عندي أنّ قَوله ﴿ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ يهدِي إلى هلاك القوة التِي بها يُعاند الحقّ ، والّتي يَحسِب أنَّها مُخلدةٌ ذكرَه ، فإذا هو هُمزة بلسانِه كما كان يفعل برسُولِ الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ولمزةٌ بيدِه كما كان يفعل مع المستضعفين من أتباعِ سيّدنا محمّد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، فويل لكلّ هُمزةٍ لُمزة مِن أحفادِه في كلّ عصرٍ ومِصرٍ .

إنَّ أنكى تهديدٍ ونكالٍ للطغاةِ الفجرةِ ما كان فيه سلبُهم قوتَهم وجاهَهم وسلطانَهم وما كان مُحققًا ذلهّم وهوانَهم على مَرأى وَمَسمَع مِمَّن كانوا مُتسَلّطين عليْهم ، فإذا ما سَمعَ الطاغِيةُ التَّهديدَ أو الإنباءَ بِمحقِ ذلك كلّه وصيرورتِه هباءَ خلاءً مُستذلاً من كل ما حولَه كان ذلك أعتى وأنكى ما يلقَى من الجزاء فِي دُنياه .

إنَّ أوّل ما يقصِم ظهرَ الفاجرِ هلاكُ سُلطانِه قبلَ هلاك نفسِه ، فذلك يُقيمه في عذابٍ أليمٍ مهينٍ مقِيمٍ ، مما يجعلُه يتمنّى هلاك نفسِه ، ويجعلُه مَطلوبه ، وهو من أعتَى ما يبلغُه الطاغِيةُ من هوانٍ . فكلُّ متترِّسٍ بما كسبت يداه من مالٍ وجاهٍ وولد وعتادٍ حين يهدّد بهلاكِه يكونُ له من ذلك عذاب مقيمٌ مهين.

هكذا استحالُ حالُ أبي لهبٍ على رؤوسِ الأشهاد ، ممَّا جعل نفوسَ المُستضعفين من حولِه متطلعةً إلى لَحظاتِ تساقطِ الهوانِ والذّلّ عليْه .

وفي هذا أيضًا إنباءٌ لكلّ من كان على منهاجِه أنَّ ما أنت عليْه من جاهٍ وسلطةٍ ، ومال إنّما هو هالكٌ لا محالة ، وأنّ ذلك لن يُغنِي عنك شيئًا .

كذلك يُعلِّمنا إنباءُ الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى بقوله ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ منهجية استفتاح إذلالِ عُتاةِ الفَجرة ، فإيراد كلمةِ ﴿ يَدَآ ﴾ هنا ليس من قبيل الإقحام ، ولو لم تكن لكان الأمرُ غيرَ مُتَّسقٍ مَعَ مَنهَجِيّةِ إنزال الهوانِ بالطّاغيَةِ الَّذي جمعَ مالاً وعدّده يحسبُ أنّ مالَه أخلَدَه .

إنّها فاتحةٌ دامِغةٌ ، ولاسِيما أنّ أبا لهبٍ العليمُ بأنّ ما ينبِئُ به ابن أخيه سيدنا رسول اللهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم إنّما هو حقٌّ وصدقٌ ، فما جرّبوا عليْه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم كذبًا قطّ .

* * *

وفي الإعرابِ بهذه الكُنية ﴿ **أَبِي لَهَبٍ** ﴾ معادلة للإعرابِ عن امرأتِه بقَولِه تعالى ﴿ **حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ** ﴾ على ما سيأتيك إنْ شَاءَ اللهُ تعالَى ، فهو من تلاحظِ النُّعوت وتعادلها ، وهو ضربٌ من الاتساقِ والانسجامِ الذي هو جوهر الجمالِ الحسيّ والمعنويّ .

الإعرابُ عنه بهذه الكنية (أبو لهب) لا يَحملُ تكريمًا كما هو الغالبُ على التَّكنية في سُنة التَّخاطب عند العربِ[1] .

---

(١) يذهبُ عبدُ الحميدِ الفِراهي إلى أن الإعلان عنه بـ« أبي لهب» ليس فيه شتمٌ ولا ذمّ، بل هو إلى التكريم أقرب ، وهذا من عبدِ الحميد غيرُ حميد .

حمله عليْه رغبتُه في تقوية ما ذهب إليْه مِنْ أنَّ قولَ الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ ليس دُعاءً على أبي لهبٍ ، وليس شتمًا له ، وهذا في نفسِه مِن الفراهيّ مقبول ، ويُمكنه أن يقرّره بغير الذهابِ إلى أن التكنية بـ« أبي لهب» إلى التكريمِ أقرب .

وهذا يُبين لك أنّ الرّغبةَ في مناصرة رأي أو رؤية ـ وإن كنتَ في قامة الفراهي العلمية الشّامخةِ ـ قد تدفعُك إلى القول بما لا يُقبلُ .

إنَّ الرَّغبة في هذه المناصَرةِ لعائقٌ من عوائق التفكير العلمي إلى استبصار الحقيقة ، فاحذرها ، ولن تستطيع أن تُفكّر تفكيرًا مستقِيما إلاَّ إذا أمكنك العرفانُ بعوائقِه ، وبأثرِها ، فاجتهد فِي تحقيقِ هذا اجتهادك في العلمِ بما يُضير صِحة جسدك ، فصِحَّةُ قلبِك (عقلِك) وصوابه أنفعُ لك من صِحة جسدك ، فإنّما أنت بأصغرَيْك : قَلبِك ولِسانك

والقولُ بأنَّها كُنيةٌ تلوّح إلى ما كانَ له من وضاءةِ وجهٍ ـ وإن صَحّ أنّه كان وضيءَ الوجهِ ذا غديرتين ـ إنّما هو قولٌ لا يَستقيم مع سياقِ السورةِ من جهةٍ ، ومن ثانية متى كان القرآن يلتفتُ إلى اعتبار الحُسن الجسدي . ومن ثَالِثَةٍ أليس الأليق بتلك الوضاءة الحسية أن يُكنى بما يحملُ إلى القلب إشراقَ النور صافيًا من الإحساسِ بالهلكة مثل أبي الضِياء أو أبي النُّور أو أبي الحُسْنِ مثلما كُنّيت زوجُه أمَّ جميل ؟!!! [1]

الإعرابُ عنهُ بهذه الكُنية إشارةٌ إلى حالِه فيهم من جهةٍ وإلى حالِه هو في مصيرِه الأخروي من أخرَى .

أمَّا حالُه فيهم ، فهو مصدرُ اللهبِ الَّذي هو رمزُ الإبادةِ ، فكلٌّ من قاربِه كان له من هذا اللهبِ نصيبٌ .

وأمَّا حالُه في مصيرِه الأخروي ، فإنّه سيَصلَى نارًا ذات لهبٍ .

* * *

وجاء قوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ جملة فعلية مجردة من التوكيد ، فلم يقل: لقد تبت يدا أبي لهب ، لفتًا إلى أنّ هذا النبأَ هُو الصِّدقُ والحقُّ واليقينُ فلا يفتقرُ إلى أن يؤكّدَ ، ففيه ما يُغنيه عن توكِيدِه من خارجه ، ألا ترَى أنَّ الإعراب عنه بـ(أبي لهب) من أعظم المؤكداتِ استحقاقَه هذا التبّ ، فإذا ما كان أبا لهب ، فما الذي يكون مصيرُه في منطق العقل الفطري؟ أليس عُقبَى اللهبِ الهلاكَ والفناءَ ، فكيف بأبي لهب ؟!!!

---

(١) روى مسلم في كتاب (البرّ والصّلة) مِن صَحِيحَه بسَنَدِه عنَ أبي هُرَيْرَةَ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم : « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»

يسلك أهــلُ البيـان العالِي إلى ترك التــوكيد بمؤكد خارجيّ إعرابًا عَـن أَنَّ ما هُم مُخبرون بِه مِن الوثاقةِ واليقينِ مَا لا يحتــاجُ هُــو إلى توكــيدٍ ، وما لا يحتاجُ المُخبَرُ به ذو العقل الفطريِّ إلى أن يؤكَّد له ، لأنَّ منطقَ العقلِ الفِطريّ ، لا يُمكن أن يتوقفَ فِي قبولِه فضلاً عن أن يتشكك ، فضلاً عـن أن يرُدّه ، وهذا نهجٌ من أنهاج البيان القرآني في ترك التوكيد .

وسنّة البيان القُرآنِيِّ فِي تجريد النَّبإِ مِن التّوكيد ، ممّا يحسنُ أن تتفرغَ له دراسةٌ علميّة تكشفُ عن مقتضِيات تـرك التّوكيـد . وتكشـفُ عَـن أثـرِ هـذا التّرك في تقريرِ المعنى وفي توطينِه ، وفِي تفعِيله في النفسِ المسـتقبلةِ هـذا النبأ . فكثير من طلابِ العلـم شُـغلوا بدراسـة التوكيـد : مقتضـياته وطرقـه ، وبدراسَةِ ما يترتّب عليه من تقريرٍ للمعاني في القلوب ، ولم يلتفت كثيرٌ إلى أن يُعطي تجريد النبأِ من التوكيد هذه العناية على الرَّغم من أن عبد القـاهر لفَتنا لفتًا قويًّا إلى أهمية دراسة بلاغـة الصـمت أو السّـكوت ، وأنـّها بلاغـة تنبعثُ في غالبِ الأمر من أمرٍ في المعنَى الـذي يـتكلمُ فيـه وهـذا بـابٌ مـن العلم كأنّه البكرُ أو كأنّه الأرضُ الموات ، وَمَن أَحيَى أرضًـا ميْتـةً فِهـيَ لَـهُ كما هدت السنة النبوية ، .... [1]

وإحياء مواتِ العلم إن لم يكن مقدمًا على إحياء مواتِ الأرضِ فهو كمثلِه فضلاً وأثرًا فِي الأمّةِ ، وحرى بنا أن نعلّم أنفسَنا وأبناءنا منهاج إحياء مـواتِ العلمِ النافع وأصـولَه وضَـوابِطَه وأدواتِـه . فكـم مـن أرضٍ اسـتزرعها الأئمـة

---

(١) روى أبو داود في كتاب (الخراج) من سننه بسنده : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى حَـدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ حَـدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ». (صححه الألبانيّ : سلسلة الأحاديث الصحيحة : ٥٦٨).

فأنبتت وأورقت وأزهرت ثُمَّ أثمرت ، وهي اليوم قفرٌ بوارٌ من رغبتنا عنها وانشغالنا برجيع الأَعاجم وبرميم سَماديرهم .

* * *

جاءَنا ابنُ كثير وحدَه بإسْكان «الهاء» من ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ فكانَ وحدَه المتشرفَ بتحمّلِ هذه القراءةِ وجاءنا سائرُ العشرةِ بفتح (الهاءِ) منها .(١)

---

(١) تفرّدُ القارئ من العشرة الثّقاتِ بتحَمّل قراءة هو من معالم التشرّفِ بالتفرّد ، وكأنّه في هذا أُمّةٌ وحدَه ، ولو أنّه ما تحمّل لخسرتِ الأمة أيّما خسارةٍ ، فجنّده الله سُبحَانَهُ وتَعالَى للقيام بِهذا الشرف العظيم وهذا ممَّا يذكر فِي مناقِبِه .
ومثلُه تفرّدُ الصّحابيّ برواية حديثٍ عن النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم هو من مناقِبِه ، ولا يظنّ مبتدئ في طلبِ العلم أَنّ هذا ممَّا يُضعِف الحديث روايةً ، كلاَّ ، لا يقُولها من ذاق شيئًا من العلم ، لأنَّ ضعفَ بعضِ الأحاديثِ سندًا لا يأتِي قطُّ مِن قِبلِ الصَّحابيّ ، وإنّما يأتِي مِمَّن جاء بعده من التابعين ومن بعدهم فحملَ عنه .
كذلك تفرّد القارئ بحملِ وجهٍ لا يجعل ما اجتمع عليه الآخرون أقوى وأعلى ، فهذا لا يقال ، فليس في القرآن من آياتِه ما هو أعلى وما هو عالٍ بل كلّه طبقة واحدة . وكذلك القراءات العشر المتواترة هي كلها طبقةٌ واحدة ، ومن فاضل بيْن ما تحمّله القراء العشرة الثّقات ، فقد دفع بنفسِه فيما لا يحمدُ عليْه أبدًا ..
وما تحمّله ابن كثيرٍ من قراءةِ إسكان ثاني الثلاثي المتحرك بالفتح ، وتحريك الساكن بالفتح كما فِي نَهر ، ونهر ، وشعْر وشَعر ، هو في العربيّة سائغٌ شائعٌ ، وهو هنا في (لهب) قُرآن يُتلى ممّا جعل لهذه السُّنة الأدائيّة عند العربِ تمكنًا .
فكل ما جاءت به القراءاتُ القرآنيّةُ ممّا كانت تعرفُ العرب ، جعلَ لهذه اللهجاتِ في هذا الموضع الذي اصطفاه القرآن الكرِيمِ مزيَّةً تفوقُ بها غيرَها ممَّا لم تصطفِ القراءات منها
وفي تسكين عيْنِ الكلمة في (لهب) لفتُ الانتباه ، بالانتقالِ من فتح إلى سُكون ، فالمغايرةُ تكسرُ درجة الإلفِ فتلفت الانتباه .

وأجمعَ حملةُ القراءات على فتح (الهاء) من ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ وما خالف في هذا أحدٌ منهم ، وذلك آيةٌ بيّنةٌ على أنَّ القراءاتِ ما هي بإمكاناتٍ لغويّةٍ نحويّةٍ لهجيّة ، فما جاز لغةً جاز قراءةً . كلاَّ ، فلو كان ، ما اختلفوا في ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ وأجمعوا في ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ . إنْ هي إلا التَّلقّي والتَّحملُ ، وأمانةُ النقلِ ، فجزاهمُ الله سُبحَانَهُ وتَعالَى عنا خيرَ الجزاءِ .

ولستُ هنا إلى ما ذهب إليه بعضُ أهلِ النّظر من أنّ تركهم التسكينَ في ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ من أنَّها فاصلة حفاظًا على التوافقِ الصّوتي ، فهذا يُشعر بِأنّ القرّاء رضِيَ اللهُ عنهم لهم الخِيرةُ في أن يفعلوا ، وأن يتركوا . كلاّ .

هم حَمَلوا ما بلغَهم عن النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم بالسَّند الوثيق ، فلو أنّه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم قرأ بإسكان (الهاء) في ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ لحملُوا ذلك عَنه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، فالأمرُ كلُّه مرجعُه أمانة في التَّحمّل ، وفِي التجرّدِ مِن الرَّغبة في أن يكونَ لهم غيرُ ذلك ، وهو شرفٌ لا يُدانَيه أيّ عملٍ آخر ، فاحرصْ على مثلِه تكن الدّنيا تحت قدميك ، وتكن الآخرة في يديك إن شاءَ الله تعالى ..

* * *

من معـانـي الهُدى في عطف قـوله (تعالى ﴿ وَتَبَّ ﴾ على الجملةِ الأولَى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ أنّ الجملة الثّانية ﴿ وَتَبَّ ﴾ تؤسّسُ لمعنى جديدٍ ، هو هلاكُه من بعدِ هلاك يَدَيْه . فعطفها عليْها اقتضاه ما فِيها من معنًى جديد ، وهذا العطف لفتَ إلى هذه المغايرة ، ولولا القَصدُ إلى لفتِ البصَائرِ إلى هذا المعنى الجدِيدِ المحمولِ في الجملةِ الثّانية لما جاءت هذه (الواو) التي تفيد عند النُّحاة معنى المشاركة في الإنباء ومن ثَم هي مثلُها لا محلّ لها من الإعرابِ .

وهي عندِ البلاغيين تفيدُ أيضًا اللَّفتَ إلَى أنّ ثَمّ جديدًا في ما بعدها وليست وظيفته توكيدُ ما قبلها فحسبُ ، بل يُضيف إلى ذلك جديدًا هو الأعلى في القصديّة ، ولما كان هو الأعلى في القصديّة استعلى الإتيان بـ(الواو) ولولا هذا لكان الأعلى تركُ (الواو) فصلا بين المؤكَّد والمؤكِّد المعروفِ عند البلاغِيين بِكمال الاتصال أو الاتصال إلى غاية كما يقُول عبدُ القاهر .

المُهمّ أنَّ ما بعد (الواو) حينَ يكونُ مقاربًا ما قبلها في المعنَى ، فإنّ (الواو) تلفتُنا إلى أنّ القصد ليس إلى توكيدِ ما تقاربا فيه ، بل إلى ما تحمله من عطاءِ جديدٍ ، ولمّا كانت بعضُ النفوسُ لا تحتاج إلى أن يكرّر لها ما سبق أن جاءَ بِه النّبأ فربَّما لا يمنحه عناية عليّةً ، فإنّ (الواو) تأتي لتنبِّه إلى أنّ فيما هو آتٍ بعدَها جديدًا ، فحرى أن يُمنحَ هذا المعنَى الجديدِ حقّه مِن العناية .

هذا الذي قلتُه يَحسُن أن تصحبه في تدبرك المواقِع التي تعطف فيها الجمل المتقارِبة في المعنى ، فيظنّ أنّها هِيَ هِيَ أو ما جاءت إلا مؤكدةً مضمونَ ما قبلها ، ولكنّ العقلَ البلاغيّ يلتفتُ بهذه الأداةِ (الواو) القائِمة بين الجملتينِ المتقاربتين إلى ما في الجملةِ الآتيةِ بعدها من معنًى جديدٍ يُضافُ عطاؤه إلى عطاء الجملةِ التي قبلَها[1].

---

(١) الوقفُ على آخر الآية الأولى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ وقفٌ تامٌّ مِنْ أن المعنى قد تمّ . وما بعده تفسيرٌ له . والوقف على المجمل والابتداء بما يفسره وقفٌ تام .
ويجوز أن تقف على آخر قوله تعالى : ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ وتستأنف التلاوة بقوله تعالى : ﴿ وَتَبَّ ﴾ وإنْ كانَ هذا غيرَ معهودٍ ، فإنه جائزٌ عربيّةً ، ذلك أنَّه من قبيل عطف جملةٍ على جملة ، ويجوز في العربيّةِ أن تقفَ على آخر الجملةِ المعطوفِ ==

الجملتان اللتان استهلت بهما هذه السّورةُ جملتان خبريتان تنبآن بنبإٍ حقٍّ يقرِّر وجهًا من وجوه إعجاز القُرآن : يُعرفُ بوجه الإنباء بالغيبِ المستقبل ، وهو في القُرآن كثير . وهذا الوجهُ مِن الوجوه المُحكمَة لإعجاز القرآن الّتي لا تحتمل تأويلاً ؛ لأنَّها واقعٌ مشهودٌ ، بينما الإعجاز البَلاغيّ يُمكن أن يُنازعَ فيه ، بل نازعَ فيه علماءٌ مسلمون يؤمنون بأنّ القرآن كلمة الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى التي أنزلها على عبدِه ونبيّهِ ورَسُولِه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم(١)

وهذه الآية هي أصلُ المعنَى في السُّورةِ كلّها ، وما هو آتٍ من بعدها إنْ هو إلا تفصيلُ ما أجملته هذه الآية ، ولو لم ينزل غيرها من آياتِ السّورةِ معها لَكَفتْ إجمالاً ، وكان بِمَلك أولو البصائرِ أن يدركوا بعضًا مِن مَعالمِ التَّفصيلِ بالتبصّرِ والتدبرِ ، فإنَّ هذين : التّبصّرَ والتدبّرَ يُثوِّران المكنونَ فِي مُجملات البيان .

فالسُّورةُ قائمة على أسلوبِ الإجمال والتفصِيل . وهذا الأسلوبُ قريبُ العطاءِ وفيرُه حين يُرادُ له أن يتحقّقَ له قُربُ الإدراكِ من جهةٍ ثُم تمكنه من أخرَى .

== عليها إذا تم المعنى ، وتبدأ بالجملةِ المعطوفةِ ، ألا ترَى أنّه يجوزُ أن تقولَ : « جاء محمدٌ »وتقف ، ثم تستأنف « وذهب خالد »

(١) من هؤلاء العلماء ابن سِنانِ الخفاجيّ في كتابِه : سِرّ الفصَاحة ، نفى إعجاز القرآن بلاغة ، وقرر أنّ الإعجاز في صَرفِ الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى العباد عن أن يأتُوا بِمثلِه ، ولو خلّى بَيْنهم وبين ما كانُوا عليْه قبل نزوله من القدرة على البيان لجاءوا بِمثله .

أمَّا قُربُ الإدراكِ ، فإنَّ المجملَ أقربُ إدراكًا من المُفصَّل ، فإنّ في التّفصِيلِ ما قد لا يُطِيقه كثيرٌ . فالمجملات أسرعُ إدراكا ، وأيسر حملاً [1]

وأمَّا تمكنُه فإنّ في التفصيل تقريرًا للمعنى ، وهو بِمثابة إعادة ما أجمل ، ممَّا يجعلُ ورُودَه علَى القلبِ مَكرورًا ، فيقرّرُ فيه .

* * *

من معاني الهدى في نسق التفصِيل على نسق الإجمال :

إذا ما كان الإنباءُ إجمالاً عن هلاك ما هو رمز قوتِه ومنعتِه جاء متقدّما يردفُه الإنباءُ بهلكتِه ، فإن التفصِيل كذلك :

جاء قوله تعالى : ﴿ **مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ** ﴾ (المسد:٢) مفصلا قولَه تعالى : ﴿ **تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ** ﴾ ومفسّرَه .

وجاء قوله تعالى : ﴿ **سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ** ﴾ (المسد:٣) مفصّلاً قوله تعالى ﴿ **وَتَبَّ** ﴾ ومفسّره .

لمَّا كانت يداه هما أداةُ كسبِه غالبًا ، فاليدُّ رمزُ القدرة على الامتلاكِ ، والفعلِ ، أنبأ القرآن أنّ ما أنتجته يداه من المالِ ومن الكسبِ لا يُغنِي عَنه شيئًا ، والعربُ لا تتَّخذُ المالَ لِذاتِهِ ، ولا تتّخذُ الولد لذاتِه ، وإن كان في اقتناءِ كلٍّ لذاته ما يشرحُ غيرَ قليلٍ من النّفوس ، لأنّهما زينةُ الحياةِ الدّنيا ، فهذان : المالُ والولدُ (كسبُه) في حقّ أبي لهب وحفدتِه فِي كلّ عصرٍ ومصرٍ لن يُغنيا عَنهم شيئًا .

---

(١) من هنا خفّ على الناشئة في باكر طلب العلم حفظ المتون العلميّة ، وأنت لا تكادُ تجد علمًا من علوم الإسلام وعلوم لغته إلا وفيه متن نثري أو منظوم يُحملُ صِغار طلابِ العلم إلى حفظه ، وقد كانت هذه سنة تعليمية عالية منذ عقُودٍ مضتْ في معاهدِ الأزهرِ . وهو أمرٌ لو عاد شيءٌ منه لكان له ما يحقق شيئًا من الخير المفقود

قولُه : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد:٢) على وجهِ الإنباءِ الغيبيّ آيةٌ بيّنةٌ قَاهرةٌ على أنّ القرآنَ من عندِ الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى فإنّه لا يجرؤُ ذو أثارةٍ من عقلٍ أن يقطعَ على الغيبِ بمثلِ هذا من عندِ نفسِه أو مِن عندِ مَن هُو مثله بشراً أو مخلوقًا . فأنّى له أن يأمنَ تخلّفُ ما أخبرَ بِه . إنّها ستكونُ حينئذٍ معرَّةَ الدّهر .

لكنّ النّبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم أعلنها فيهم ، وملأ بها أسماعَهم وقلوبهم ، فما جَرأَ أحدٌ أن يقولَ له : إنّ هذا لَنْ يكونَ ، بل كان أبُو لَهَبٍ يتوجَّسُ خيفةً مِن كلّ ما هدّدَه بِهِ ابنُ أخيه سَيّدنا مُحمّدٌ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم . ومن ثَمَّ حرَصَ علَى ألاَّ يخرجَ يومَ بدرٍ مَعَ مَن خرجَ علَى عظيمِ عدائِه للنبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم وعلى شَديدِ حقدِهِ علَى الإسلامِ وأهلِهِ ، واستأجر من يخرجُ مكانَه وتلك لا يفعلُها إلا ساقطُ الهمّةِ ..

لو أنّ أبا لهبٍ ومن حولَه تبصّروا حالَ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم وهو يعلنها فيهم :﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾ (المسد:١-٣) وهم يَعلمون أنّه ما جَرَت قطُّ على لِسانهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم كلمةٌ كَذِبٌ ، وما أنبأ قطُّ بما لم يقع عَيْنَ ما أنبأ ، وما خانَهم ، صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم فِي أمرٍ قطُّ ، لو أنَّهم فقهوا لعلموا أنَّ من ورائه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم من يملأ قلبه يقينًا بما ينبئُ بِه .

هذه الآياتُ وحدها كفيلة بألاّ تدعَ أحدًا من قومِه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم غيرَ مؤمنٍ بِه منافحٍ عنه إن استَمعت قلوبُهم ما أعلنَه فيهم من هذه الآيات .

ولكن الله سُبحانَه وتَعَالَى قد أنبأ عن حالِهم وحالِ حفدة منهجهم من بعدهم إلى قيامِ الساعة : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩) [1].

---

(١) هلْ لك إلَى أن تتبصّرَ في قولِه تَعَالَى جَدُّهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ وقد استحضرهم باسم الإشارة (أولئك) بيْن عينيك لتقوم مقام المشاهدة لما هو قائمٌ فيهم ، وخارجٌ منهم ، فتدرك أنّه وإن تعجبك أجسامهم فإنّما هم كالأنعام ، وهنا يقيمُك تتبصّر ما يلتقون فيه مع تلك الأنعامِ ، فتدهش ، وأنت في دهشك هذا من تكاثر معالم الاتفاق بينهم وبين الأنعام ، يأتيك الإضرابُ بـ(بل) فإذا هو يصرِفك إلى ما هو فوق الذي أدهشك قبلُ ، يقُولها لك : ﴿ هُمْ أَضَلُّ ﴾ فيحملُك بهذا التَّصاعدِ في كشفِ الواقِع إلى أن تحسنَ التَّبصُّرَ في حالِهم أكثر ، لترى أنّ الأنعامَ لو عرض عليها ما عُرضَ عليهم ، ولو أنَّها مُنحت ما منحُوا من نِعمةِ وسائلِ الإدراك ، لما كان من واحدٍ من تلك الأنعام ما كان مِن واحد من أولئك الذين تعجبُك أجسامهم ، وتملأ مناظرهم الأعين .

هكذا يتصاعد بك البيان القرآنيُّ حتى يترع قلبك بحقيقة أولئك ، ثُمَّ يقُولُها لك لتعلم مبعث ما هم عليْه . إنَّهم أضل من الأنعام إنّهم هم مقياسِ الغفلة التي لا يدانيهم فِيها مخلوق ، أولئك هم الغافلون .

كذلك يصُوغ البيان القُرآني الجملة صياغة تقطع بتفرُّدهم في بابِ الغفلةِ . إنهم الأنموذج الأكمل للغفلة ، وفي هذا من التَّنفير البالغ من الاستسلام للغفلة ، ومن الحفزُ الفتيّ للتيقظ ، وللحضُور العقليّ والنفسيّ والقلبي إزاء كلِّ ما يَجرِي من حولك .

بهذه الجملة : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ يقضي البيان القرآني في أمر الغفلة ، وخطرها ، وأن صَاحبها بمقدار ما يحوز منها بمقدار ما يكون دخُولُه في ==

صيغ قوله تعالى : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد:٢) على نهج المضيّ ، فـ(ما) في قولِه تعالى : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ ﴾ (المسد:٢) نافية ما بعدها[1]

==عالمِ الأنعام . **إنَّ مفتاحَ الولوج فِي هذا العالم هو الغفلة .**

إنّه الإبلاغ في التنفير منها ، وفِي التحفيز إلى التيقّظ ، وإلى أخذ الحذر والنفرة من كلّ ما يُقارب من عالم الأنعام .

وجاء قولُه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ غيرَ معطوفٍ بـ(الواو) على قَولِه تَعَالَى جَدُّهُ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ ﴾ لفتًا إلى أمرين :

الأمرُ الأول : إلى ما بيْن مضمون كلٍّ من تلاقٍ ، وهو أمرٌ يحسُن تقريرُه في النفوس ، وفي إبراز معنى التلاقي بترك العطفِ عونٌ على ذلك ، لأنَّ ترك العطف يلفت إلى مقصديّة التقرير والتأكيد والتأطيد ، فيعلم السَّامع أهمية تقريرِ ذلك في نفسِه ، فيحرصُ عليْه .

وهذا من سنة البيان القُرآنيّ في لفت الانتباه إلى ما يريدُ الانتباه له لأهميته لِلسَّامع .

والأمرُ الآخرُ : هو لفت الانتباه إلى ما في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ من إشارة إلى مبعثِ ما هم فيه من مشابهةٍ للأنعام بل ما هم فيه مِن تفوقٍ عليها إنّما هو الغفلة .

(١) يذهبُ بعضُ أهلِ العلم إلى أنّه يُمكنُ أن تكون (ما) استفهامية ، بمعنى أي غناء أغناه عنه ماله وما كسبه ؟ فهو استفهام إنكاريّ يفيدُ النفي ، والاستفهام الإنكاري مآلُه كما ترى إلى الخبر ، ولكن جاء البيان عن النفي بالاستفهام الإنكاري ، حملا للسَّامع إلى أن يتبصّر ، وأن يراجع ويبحث ويفتّش في الأمر ليجد جوابًا عن ذلك الاستفهام ، فلا ينتهي بِه طولُ بحثِه وتفتيشه إلا إلى أن يعلن أنّه لم يغن عنه مالُه ولا ما كسب شيئًا ، فيكون هذا إقرارًا اعترافيًّا ، وهو أقوى سبل الإثبات فيسدّ طريق الاعتراضِ والتوقف في التسليم بهذه الحقِيقةِ ..

ولا يستقيم أن تكون (ما) في قوله (ماله) موصولةً صلتها (له) على معنى : ما أغنى عنه الذي له ، لأنّ القراءة بالرفع (مالُه) فهو فاعل (أغنَى) ولم تأتِ قراءة بجعل (ما) فاعلا للفعل (أغنى) فيكون (اللام) في (له) مفتوحًا . ==

بينما صيغ قولُه تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد:٣) على نهجِ الاستقبال ، وكان يُمكن أن يُقال فِي غيرِ القرآن : لن يُغني عنه مالُه وما كسب ، فيكون على نهج ما بعده ، أو يجعل ما بعده على نهجه ، فيقع التناظر والتشاكلُ فِي الصيغة ، لكِنّ البيانَ القُرآني عدل فجعل ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد:٢) على نهج المضي لأنّ هذا متحقّقٌ في الدنيا ، وواقعٌ بيْن أعينِ الملأ ، فلا سبيلَ إلى إنكارِه ، فلم يغن عنه مالُه شيئًا ، ولم ينفعه كسبه البتّة ، ومن كَسبِه ولده[1] ومن يقرأ أحداث موتِه ، وما فعل أولادُه به ، وكيف أنهم تحاشوا الاقترابَ منه أو العمل على دفنه ، لعلمَ أنّ ولده لم يغن عنه حتى في مواراتِه الترابَ بعدَ موتِه ، وهو أدنى ما يصنع

==ولو جاءت قراءة بهذا لكان قوله (ما كَسَبَ) داخلا فيه ، فإن ما كسب هو له أيضًا ، ويكونُ مِن عطفِ الخاصّ على العام . فإنَّ الذي له يَعُمُّ ما كَسَبَهُ بنفسِه ، وما لم يكسِبْهُ بِنفسِه مِن ميراثٍ وغيرِه ، ولكنَّ ما كَسَبَ لا يكونُ إلاَّ لِما عَمِل على كسبه ، وكان له في تحصيلِهِ يدٌ .

وهذا يبين لكَ أنّه ليس كلّ ما أمكنَ عربيَّةً جازتُ القراءةُ بِه ؛ لأنَّ القراءةَ توقيفٌ لا دخلَ لأحدٍ من العالمين فيها . بيْنما تأويلُ القراءة وتوجيهها اجتهادٌ وفق أصولٍ وضوابطَ متعيّنةٍ حرصت على تقرير أنَّ القراءات القرآنية توقيف من الوحي دفعًا لما يذهب إليه بعض المحدثين إلى أنه يصح أن نقرأ القرآن باللهجات العربية ، فيقرأ كل عربي بلهجته وهذا خطأ فاحش .

(١) ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنّ المعنى ما أغنى عنه ماله وما كسب في الآخرة ، فلا يقيه ماله وولده نار جهنم . وهذا عندي غيرُ عليّ ، لأن غيرَه من العصاة والطغاة والفجرةِ والكفرة لن يغني عنهم مالهم وما كسبوا يوم القيامة . ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(الممتحنة:٣) ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ (سبأ:٣٧)

الولدُ لأبيه[1] . ومِن فضل الله تعالى أن بعضًا من ولدِ أبي لهبٍ أسلموا ، وحسن إسلامهم[2] وهم بذلك يتعبدون ربهم بقراءة هذه السُّورة ، فانظر كيفَ أنّ الإسلام يحيل ولاء المرءِ من قبيلته وأسرته ورحمِه إلى أن يكون ولاؤه لله تعالى وحده ، فهؤلاء ولد أبي لهب يتعبدون بما جاء في شأن أبيهم ، وهذا أبو سفيان وولده رضي الله عنهما يتعبدون بذلك ، وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يتعبد بقراءة سورة (القلم) .

إنَّ هذا لآيةٌ جليّةٌ الدّلالةِ ، فتيّةٌ البرهانِ علَى أنَّ الإسلامَ هو الحقّ ، فكيفَ يتعبّدُ رجلٌ بما جاء في حقِّ أبويهِ من تقريرِ أنهما في النارِ خالدين أبدًا إلاَّ إذا كان على يقين قطعيّ أنّ هذا هو الحقُّ المبين ، كذلك يفعل الإسلام في الرجالِ ، يجعلُ ولاءهم لدينهم ، وليس لغيرِه قبيلة أو وطنا أو حزبًا

---

(١) ينظر في هذا : الروض الأنف ١٢١/٥، ١٢٢

(٢) ينظر في هذا : سبل الهدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت : ٩٤٢هـ) تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، ط . ١ ، سنة ١٤١٤هـ ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤٠/١١، ١٤١ .
وما جاء به بعضُ أهل العلم أن قوله ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد:٣) خبر عن ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد:٢) وأن المعنى ما كسب سيصلى نارًا ذات لهب ، أي ولده سيصلى ... هو وجه بعيدٌ جدًّا . رأيته في كتاب : معاني القرآن وإعرابه ، تأليف أبي إسحاق الزجاج (ت :٣١١هـ) تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي ، ط .١، ١٤٠٨هـ ، عالم الكتب ـ بيروت . ٣٧٥/٥ يقُول : « (سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، أي : وولده سيصلى ناراً ذات لهب . ويقرأ : (سَيُصْلَى نَارًا).
وأخشى أن يكون هذا من غفلات المحقق أو ناسخ المخطوطة . ذلك أنّ الزجاج قال بعد ذلك « ويقرأ (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) ــ بالنصب ـ وامرأته رفع من وجهين : أحدهما العطف على ما في « سَيُصْلَى » ، المعنى سيصلى هو وامرأته ويكون (حَمَّالَةُ الْحَطَبِ) نعتا لها ». فالقولُ بأنّ (سيصلى) خبرٌ عن (ما كسب) بعيد فإن أكثر ولد أبي لهب قد دخل في الإسلام . وحسن إسلامه .

أو قومية أو نحو ذلك فشعارُهم دائمًا «الإسلامُ أولاً وآخرًا» و«الإسلام كلُّ شيْءٍ» ، ومن رفع غيرَ ذلك ، فقد قاربَ أن يقعَ فيما لا تُحمدُ عقباه عقيدةً ، فليحذر الَّذين آمنوا أن تتخطفهم أهواؤهم وشهواتهم وشبهاتهم وجهالاتهم وضلالاتهم ؟[1]

* * *

ويأتي قولُه تعالى ﴿ **سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ** ﴾ (المسد:٣) تفصيلاً لقولِه (وتبّ) من جهةٍ ، ومن أُخرى يُمكنُ أن تجعلَه كالنتيجة لقولِه ﴿ **مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ** ﴾ (المسد:٢) ذلك أنّه إذا كان عدم الإغناء هذا هو مصيرُه في الدنيا ، فإن مصيره في الآخرة أعتى .

ولك أن تجعلَهُ استئنافًا بيانِيًّا عن الجملة التي قبله ، كأنَّه قيل: هذا جزاؤه في الدنيا ، فما جزاؤه في الآخرة ؟ فقيل : ﴿ **سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ** ﴾

والوجهان يمثلان طريقًا من طرق الوصلِ بين المعاني وصلا جوانيًّا ، يُستغنى فيه من قوته عن عامل لفظيّ يحقق التواصل . وهذا ما يسميه البلاغيون الفصل لكمال الاتصالِ وشبهه ، فيجعلون ترك العطف بالواو للاستغناء عن عامل وصل خارجي فصلا لفظيًّا ووصلا معنويًّا .

---

(١) الوقفُ على قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَسَبَ** ﴾ وقف تام ،وهو من السنة لأنه وقف على رأس الآية .

أمّا الوقفُ على ﴿ **مَالُهُۥ** ﴾ واستئناف التِّلاوة ﴿ **وَمَا كَسَبَ** ﴾ فغير حسن إنْ جعلنا قوله تعالى ﴿ **وَمَا كَسَبَ** ﴾ معطوفًا على فاعل ﴿ **مَآ أَغْنَىٰ** ﴾ فليس حسن أن تقول : «جاء مُحمّدٌ» . وتقف ، ثم تبدأ : «وخالدٌ» إلا على تقدير وخالدٌ كذلك .

وعلى هذا التأويل يمكن أن تقف على ﴿ **مَالُهُۥ** ﴾ ثُم تستأنف ﴿ **وَمَا كَسَبَ** ﴾ على أنَّ ﴿ **مَا** ﴾ في ﴿ **وَمَا كَسَبَ** ﴾ مبتدأٌ محذوفُ الخبر ، تقديرهُ «ومَا كسبَ كذلك» فيكون من عطف جملة اسميّةٍ مُثبتةٍ علَى جُملةٍ فِعليّةٍ مَنفيّةٍ ، وهو سائغٌ شائعٌ في العربيّة .

والسين في (سيصلى) هي إلى الإبانةِ عن توقيتِ الفعلِ أقربُ منها إلى توكيدِ وقُوعه ، ذلك أن المُفسَّرَ ﴿ وَتَبَّ ﴾ جُرِّدَ من التوكيد لاستغنائه عنه ، فلا يكونُ ما يُفَسِّره مفتقرًا إلَيْه ، فـ(السّين) بيانُ أنّ ما بعدها هو جزاؤه في مصيره ، وأن ما قبله بيانُ جـزائه فِي مسيره . فإذا ما كانت الجملـة الأولى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ جرّدت من التوكيد ، وما يُفَسّرها ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ كذلك جرِّد من التَّوكِيد ، كذلك الأمر في الجملة الثانية (تب) وما يُفسّرها ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد:٣) [١]

وقولُه : ﴿ سَيَصْلَىٰ ﴾ من الصّلي . وهوالشّيّ ، تقُول العربُ : صَلَى اللَّحْمَ وغيرَهُ يَصْليهِ صَلْياً : بالتَّخفيفِ ، عَلَى وَجْهِ الصَلاحِ مَعْنَاهُ شَوَيْته ، فأَمَّا أَصْلَيْتُه وصَلَّيْتُه فَعَلَى وجْهِ الفَسادِ والإِحْراق ؛ وَمِنْهُ قوله : فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ، وَقَوْلُهُ : وَيَصْلى سَعِيراً .

* * *

(١) ما ذهبت إليْه من أنّ (السين) في ﴿ سَيَصْلَىٰ ﴾ أقربُ إلى بيانِ أنَّ ما بعدها واقعٌ في المستقبل ، وأنَّها لم تأتِ لتوكيد الوقوع مخالفًا بِهذا ما عليْه جمهرةُ أهلِ العلم . الّذي حملني إلى ما ذهبت إليه ملاحظة الاتساق في منهج الإبانة في الجملتين الأوليين وما يفسِرهما ، وإلا كنا بحاجةٍ بالغة إلى بيان ما اقتضي توكيد مُفسر الجملةِ الثانية ، دون ما تفسره ، ودون الجملة الأولى وما يُفسرها ، وليس عندي ما يُبِينُ لي عن ذلك المقتضِي ، ولم أجد أحدًا من أهل العلم الذين قالوا إن (السين) هنا للتوكيد أبان عما قلت من وجوب الإبانةِ إذا قلنا إن السين للتوكيد . بسطتُ لك القول في بيان النهجِ الذي سلكتُ وما حملني عليْه لتكون على ذكر من وجوب أنْ يكون مذهبُك في التأويل له ما يحملُ عليه ، وله مسوغُه الموضوعيّ فإنّ الذهاب بغير ما يحمل عليه ليس من شأن أهل العلم وطلبتِهِ .

وفي تنكير المفعول الثاني لهذا الفعل ﴿ نَارًا ﴾ من التهويلِ ما تنخلعُ له القلوب أي سيصلى نارًا عظيمة ذات لهب متوقد لا يخبو . ولذا جاء نعتُ النار بقولِه تعالى ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ وكان يُمكن أن يقُال في غيرِ القرآن ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ﴾ فقولُه تعالى : ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ للدّلالة على أنّها نارٌ تتوقد ، وتزداد تلَهُّبًا واستمرارًا في الصَّلي .

وهذا متآخٍ مع قول الله تعالى في سورة الهمزة : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾ قوله : ﴿ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾ أي التي لا يخبو اتقادها ، فهم في عذاب أليم متنوع مستمرٍّ ، لا سبيلِ إلى أن يعتاده الإنسانُ .

وفي قولِه ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد:٣) إشارة إلى أنَّها لهبٌ خالصٌ لا دخانَ فيه ، من شدةِ توقّده ، فإن النَّار إذا اشتد توقدها صفت .لا يُخالِطها دخان .

وفي قوله ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أيضَا نظر إلى كنيته ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ تشاكل جزاؤه مع كنيتِه التي كان يكرّم بها لوضاءة بشرةِ وجهه وصَفائها كما يذهب إليه جمع من أهل العلم . وقرأ الجمهور بفتح ياء المضارعة من ﴿ سَيَصْلَىٰ ﴾ وفي رواية أبي صالح البَرجُمِيّ عن أبي بكر بن عيّاشٍ بضم الياء ﴿ سَيَصْلَىٰ ﴾ على البناء لغيرِ الفاعلِ مع تخفيف عين الكلمة ، ومنهم من قرأه مع تشديده (سَيُصَلّى)[1].

---

(١) المبسوط في القراءات العشر ، لأبي بكر بن مهران (ت : ٣٨١هـ) تحقيق : سبيع حاكمي . نشر : مجمع اللغة العربية ـ دمشق . ١٩٨١م . ص٤٧٩، ٤٨٠، والكامل في القراءات ، لأبي القاسم الهُذَلي (ت: ٤٦٥هـ). تحقيق : جمال الشايب . ط . ١ ، ١٤٢٨هـ مؤسسة سما للتوزيع والنشر . ص٦٦٣

وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، لشهاب الدين الدمياطيّ (ت : ١١١٧هـ). تحقيق : أنس مهرة . ط .٣ ، ٢٠٠٦هـ . دار الكتب العلمية ـ لبنان . ص ٦٠٦

في قراءة الجمهور بِالفتح (سَيَصلَى) التي يُسندُ فيها الفعلُ إلى ضميرِ (أبي لهب) على الفاعليّةِ دَلالةٌ علَى أنَّ هذا الفعلَ حتمٌ لا مفرَّ منه ، وأنّه الّذي يقعُ عليه الفعلُ كأنَّه هو الّذي يقعُ منه الفعلُ ، لا اختيارَ له في ذلك ، على نحو ما تراه في « مات فلانٌ ، وتفتَّح الزَّهرُ وطابَ الثَّمرُ ، وانكسر الزُّجاجُ وهبّتِ الرِّيح ، وطلعتِ الشمسُ ... » فما أسند إليه الفعلُ في كلّ هو في الحقيقة قد وقعَ عليْه الفعلُ من فاعلٍ ، ولكنْ أسندَ إليه على الفاعلية اللغوية لا المعنوية آية على أنَّ الفعل حتمٌ ، وأَنّ ما يقعُ عليه الفعلُ لا أثرَ له فيه ، ولن يمتنعَ منه ، فهو مسيّرٌ لا مخيّرٌ .

وفي هذا من التَّهديدِ ما فِيه . وفيه أيضًا من البُشرَى لرسُولِ الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، والذين معه ما فيه .

وقراءة ضَمّ (ياء) المُضارعة من (سَيصلى) دَلالةٌ على أنّ فاعلَ هذا به معلومٌ ، لا يكونُ من أحدٍ سواه ، فهو وحده القادرُ على ذلك ، فظهورُ اختصَاصِه بِه اقتضَى طيّ التّصريح بذكره ، فكان تركُ التّصريحِ بذكرِه أدلَّ على المُرادِ مِن ذكره ، وتلك من بلاغةُ الطَّيّ . وفيه من جلالِ الألوهية ما يملأُ القلبَ خشية .

وهذا فيه من الإشارة إلى توحيدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأنَّه إذا لم يكن هناك سواه يُمكن أن يصدرَ عنه ذلك الفعلُ ، فهذا آيةٌ علَى أنَّ كلّ من سِواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يصلحُ أن يكون إلهًا من دون الله تعالى أو إلهًا معه [1].

* * *

(١) الوقف علَى (ذات لهب) وقفٌ تامٌّ ، إذا ما جعلنا قَوله تعالى ﴿ **وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ** ﴾ (المسد: ٤)
والوقف على رؤوس الآي سُنّة متّبعةٌ .

والبيانُ القُرآني عُني بتصريف البيان عن النارِ وأهلها ، دفعًا للعبادِ عن مقاربَةِ ما يفضِي إليها ، وإغراءً بما يباعدهم عَنها

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

(آل عمران:١٨٥)

فالتّخويفُ مِن النَّارِ في الكتابِ والسُّنة لا يحملُ قطُّ على اليأسِ والقنوط ، ولا علَى التقوقعِ والبُعد عن تعميرِ الحياة بما ينفعُ الناس ، ولا على الزُّهدِ السلبيّ ، بل إنّ هذا التخويفَ يدفعُ إلى إتقانِ العملِ الصَّالحِ المصلح ، والإخلاصِ فيه لله تعالى ، وعلى التّسامح والصّفح والإيثار وعلى كل مكرمة أخلاقيّة إيمانًا واحتسابًا ، فلا تجدُ من الخائفِ من النار إلا ما يملأُ قلبك طمأنينة إزاءه ، فلا تتوجسُ منه خيفةً ، لأنّه يخاف أن تكون النارُ مثواه .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات:٤٠،٤١)

ما يذهب إليْه الذين يصدُّون عن سبيل الله تعالى متاجرة بالدُّنيا من أنَّ حديث العلماءِ والدُّعاة عن النار وعذابِ القبرِ يملأ قلوبَ الناسِ يأسًا ورغبة في الانكفاء على النَّفسِ وبعدًا عن تعميرِ الحياة ، وعن التّقدم العلمي ، وعن المنافسة في تحقيق الحضارة الإنسانية الراقية للمسلمين لا يَخلو من أحد أمرين :

إمّا أنّه مذهبٌ حملَهم عليه جهلٌ أحمقٌ استعذبوه فأبوا علاجه

وإمّا أنَّه مكرٌ أخرق مَرَدُوا عليْهِ ودبّروا له بليلٍ بهيم .

إنّ مخافة المسلِمِ من الله تعالى عاملٌ من عواملِ الإحسان في كلّ شيءٍ ، وعاملٌ من عَوامِلِ تعميرِ هذه الحياة بكل ما هو نافعٌ . وأنَّ الدّنيا عنده

مزرعةُ الآخرة ، والعنايةُ بها من عنايتهم بأُخراهم . وما تخلّف المسلمون عن ريادة الدُّنيا وأهلها إلا حين خلعوا الخوف من الله تعالى من قلوبهم ، وسقطوا في مستنقع «الإرجاء» الذي يريدُ أعداء الأمة أن تبقَي فيه غارقة .

ألا يَسمعُ أولئك الجاهلون أو الماكرون ما رواه التّرمذيّ في كتاب (الزهد) من جامعه بسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَىُّ النَّاسِ خَيْرٌ قَالَ «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ». قَالَ فَأَىُّ النَّاسِ شَرٌّ قَالَ «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

ورواه أحمد من حديث أبي بكرة ، ومن حديثِ عبد اللهِ بن بسر .

هذا النبأُ النّبويّ هادٍ إلى أنّ الخيرة في مَن عمل صالحًا في عمرٍ مديدٍ ، ولا يكون العملُ صالحًا إلا إذا كان نافِعًا ومصلحًا ، وأساسُ العملِ الصَّالح فِي الإسلام ثلاثٌ : الإخلاص ـ الاتباع ـ الإتقان :

- الإخلاص بصفاءُ القصدُ وطهر النية (الاحتساب لوجهِ اللهِ تعالى)
- الاتباع بالالتزام بهدي شريعة الكتاب والسّنة ، فلا يَحيد عنها في صُنعه البتّةَ .
- الإتقان بامتلاك مهارات الجودةِ وأدوات الإجادة ، وحسن توظيف ذلك .

وهذه الثالثة (الإتقان) داخلةٌ في الثّانيةِ (الاتباع) فمن اتَّباعِ الشّرع إتقانُ العمل [1]

---

(١) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم قال : « إنّ الله يُحِبُّ إذا عَمِلَ أحَدُكُم عَمَلاً أن يتقنه»
رواه الطبراني في المعجم الأوسط (حديث رقم : ٨٩٧) وفي الجامع الصغير وزياداته . حديث رقم (٢٧٦١) وحسن الألباني في صحيح الجامع الصغير==

وإنما أفردته بالذكر من قبيل ذكر الخاصّ بعد العام ، إبرازًا لوجوبِ مزيدِ الاعتناء بِه في عصرنا ومصرنا ، فقد بات الإتقان فريضة غائبة عند كثير وغائمة عند من بقي .

هذه الثّلاثةُ هِي عَمودُ عَمَلِ المُسلمِ الّذي يَخافَ ربّه سُبحانَه وَتعالَى ، ويَخافُ نارًا ذاتَ لهبٍ أعدَّها اللهُ تعالَى لأبِي لهبٍ ولأحفادِهِ .

* * *

==وزياداته . حديث رقم (١٨٨٠) ٣٨٣/١ ، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، ط . ١ ، نشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،الرياض. حديث رقم (١١١٣) ١٠٦/٣

وإتقانُ العملِ على الوجه الذي يحبُّه الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لا يكون إلا إذا كان صَاحبه عليمًا به وبما يستوجبه من مهارةٍ وأدواتٍ ، وكان مليكًا لتلك المهارات والأدواتِ ، مقتدرًا على الوفاءِ بحق ذلك. فمن تولى عملا ليس له بأهل فإنه يفسِده، فيشيع الفساد في الأرض . والله تعالى نهى كثيرًا في كتابِه عن الإفسادِ في الأرضِ

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ (الأعراف:٥٦)

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف:٨٥)

﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة:٦٤)

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف:١٤٢)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس:٨١)

﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٧)

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ (البقرة:٢٠٥)

obeikandl.com

معاني الهدي في الآيتين في شَأنِ امرأةِ أبي لهب :

لما أبان عن حالِ أبي لهبٍ في مسيرِه ومصيره بيانًا معجزًا بما حمله من إنباءٍ بغيبٍ وبِمعناه ومبناه أبان عن حال امرأتِه التي كانت عضده ووزيره ومحرضه على الإفسادِ في الأرضِ ، فقال سُبْحَانهُ وَتَعَالَى ﴿ **وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ** ﴾ (المسد:٤،٥) فهذه الآيات تبين لنا عَن أثرها عليه ، وأن لها اليدُ الطولَى في ضلالِه وتبَه .

وأنت إذا ما أبصرت حالها معه واستحضرت حال سيدتنا خديجة رضي الله عنها مع رسول الله صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم تبين لك عظيم الفرق بيْنهما .

وجعل الله تعالى صنيع امرأة لأبي لهبٍ قرآنًا يتْلَى ويتعبّدُ به بيْنما لم يذكر صنيع سَيدتِنا خديجةَ رضِيَ اللهُ عنها مَع زوجها رسول الله صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم وترك أمره لبيان السنة النبويةِ لفتًا إلى فداحَةِ ما صنعتهُ امرأةُ أبِي لهبٍ . وأنَّ هذا ليس من شأنِ المَرأةِ أن تصنعَه البتَّةَ مَع رجلها ، فكان جديرًا بأن يجعلَ حاضرًا في لسانِ كلِّ مُسلم وسمعِه وقلبه ليتخذ له حجازًا منيعًا مِن مقاربة تلك الحال المبيرةِ .

استهلّ البيان عنها بقوله (امرأته) دون قولِه (زوجه) لفتًا إلى أنَّهما وإن تكاملا ، فإن تكامُلهما كان في الشرّ ، فلا اعتدادِ به ، والزّوجية الأصلُ فيها التَّكامل في الخير ، فكلُّ مَن كانت صاحبتُه غيرَ متكاملةٍ معَه ، فَهِيَ امرأتُه ، أَو كانت متكاملةً معَه في غيرَ الخيرِ ، فهي امرأته أيضًا ، وليست بِزَوجِهِ ؛ لأنَّ معنَى الزوّجية في العرفِ اللغوي غيرُ متحقّقٍ هنا . فالزوجُ هو الفردُ الّذي يتكاملُ وظيفةً مع مثيلِه . والاعتداد هنا بالتكامل في الخيرِ لا في الشرّ.

ومن ثَم كان من السّنةِ البَيَانيّةِ فِي القُرآنِ البيان بالزَّوج حين يكونا مُؤمنين:

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾

(النساء:١٢)

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة:٢٤)

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ (الرعد:٢٣)

﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (المؤمنون:٦)

﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ (يس:٥٦)

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (غافر:٨)

فإن قيل إنه قد جاء في قولِه تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ (الصافات:٢٢) البيان هنا بالأزواج ، والحديثُ عن الذين ظلموا .

قلت : لا يُراد بِقوله : ﴿ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ هنا النّساء ، بل يراد أشباههم في الفعل من الذُّكرانِ والنساءِ ، وهذا ما جاء عن ابن عباسٍ رضِيَ اللهُ عنهما .

قال : «قال أشباههم» فهو يناظرُ قولَهُ تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ (التكوير:٧) أي قرنت بما يُشاكلها وجاء من قبلِه عن عمر بن الخطابِ رضي الله عنه[١]

فإن قلت قد جاء البيانُ عن صاحبة سيدنا إبراهيم عليه الصّلاةُ والسّلامُ بامرأته دون زوجه ، وهي مثيلُه في الخير ومتكاملةٌ معه في هذا الباب : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ (هود:٧١)

قلت : كانت على نهجه السلوكيّ غَيْر أنّها كانت عقيما ، فلم تكن كاملة الزَّوجيّة .

---

(١) عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه ، قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضيَ اللهُ عنه ، يَقُولُ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ (الصافات:٢٢) قَالَ : «الصَّالِحُ مَعَ الصَّالِحِ ، وَالطَّالِحُ مَعَ الطَّالِحِ»

وعنه ، يَقُولُ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ، يَقُولُ : «مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ (التكوير:٧)» ، فَسَكَتُوا ، فَقَالَ عُمَرُ : «وَلَكِنِّي أَعْرِفُهُ ، هُوَ الرَّجُلُ يُزَوِّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَالرَّجُلُ يُزَوِّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ، ثُمَّ قَالَ [أي قرأ] : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ (الصافات:٢٢)....

وعَنْ مُجَاهِدٍ ، قَالَ : «يَقُولُ : يُزَوِّجُ الأَمْثَالَ الأَشْبَاهُ مِنَ النَّاسِ يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ»

تفسير سفيان الثوري ، ط . ١ ، ١٤٠٣هـ . دار الكتب العلمية ، بيروت ص ٢٥٢

وتفسير مجاهد بن جبر المخزومي ، تحقيق : محمد عبد السلام أبو النيل ، ط . ١، ١٤١٠هـ ، دار الفكر الإسلامي الحديثة ، مصر ، ص ٥٦٧ ، ٧٠٧

وتفسير يحيى بن سلام التيمي (ت : ٢٠٠هـ) تحقيق : هند شلبي ، ط .١، ١٤٢٥هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٨٢٧/٢

وتفسير الطبري ، تحقيق أحمد شاكر ، ط .١ ، ١٤٢٠هـ ، مؤسسة الرسالة ٢٧/٢١

obeikandl.com

وذهب السهيليّ إلى وجهٍ آخر جَوادٍ :

قال : ذكر الْمَرْأَة أليق هنا لأَنَّهُ جاء فِي سِيَاق ذكر الْحمل والولادة ، فَذكر الْمَرْأَة أولى بِهِ « لأَنّ الصّفَةَ الّتِي هِيَ الأُنُوثَةُ هِيَ الْمُقْتَضِيَةُ لِلْحَمْلِ وَالْوَضْعِ لا مِنْ حَيْثُ كَانَ زَوْجًا[1] .

فالبيان بالزَّوجية وإن كان في أصله قويمًا في حقّها إلا أن السّياق لفتَ إلى معنى يقتضيه القصدُ ، وهو الحملُ والولادةُ وهو معنًى يستحضرُه لفظُ « المرأة » فالتفتَ إليْه .

وقد يقال : لِم جاء البيان عن صَاحبة سيدنا زكريا عليه الصّلاةُ والسّلامُ بالزوجية : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (الأنبياء:٩٠) وهي عقيم؟

قلت : لمصاحبة قولِه تعالى ﴿ وَأَصْلَحْنَا ﴾ فلمَّا أصلحها ممَّا هو بها من العُقم كانت أحق بأن يكون البيانُ عنها بالزَّوجيّةِ .

وجاء البيان عن صاحبة سيدنا نوح وسيدنا لوط عليْهما وعلى نبيّنا الصّلاةُ والسّلامُ بالمرأة : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ (التحريم:١٠) لأنَّهما كانتا كافرتين ، فليست كلٌّ على نهج صَاحبها ، فلا تكامل بين كلٍّ وصاحبتِه فِي الخيرِ : رجلُها على هُدى وداعٍ إليْهِ ، وهي فِي ضلالٍ مبينٍ .

---

(١) الرَّوض الأنف للسهيلي تحقيق : عمرالسلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط . ١ ، ١٤٢١هـ ، (م.س) ١٨٦/٣

وجاءَ البيانَ عن صاحبة العزيز بامرأته دون زوجِه : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف:٣٠)

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (يوسف:٥١) لأنّها لم تكن على ما تكونُ عليْه الزّوج مع زوجها: حافظة بالغيبِ .

وجاء البيان عن صاحبة فرعون عليْه من الله ما يستحقُّ بامرأتـه دون زوجه : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التحريم:١١) لأنَّها كانت على الحقِّ ، وكان هو في الباطل ، فلا اتفاق ولا تكامل في خيرٍ . فما هي بزوجه .

وهذا يهدينا إلى أنّ الزَّوجيَّة الحقَّةَ هِي الَّتي تحقِّقُ الوظِيفة الَّتي كـان لهـا تُأَسّسُ الأسرةِ ، فليس الزَّواج في الإسلام لقضـاءِ شـهوةٍ بمـا أحـلّ الله تعـالى فحسبُ وإن كانَ هذا في نفسِه أمرًا جليلاً ، بل مِن وراءِ ذلـك مـا هـو جليـلٌ مثله أو أعظمَ منه : من وراءِ ذلِك تعاونٌ وتكاملٌ في صِناعةِ الخير ، ونشرِه ، ونصرته بالحقّ وتسببٌ في نتاج من يعملُ للإسلام ونشرُه وينصُره من البنات والبنين .

وكلُّ أسرةٍ لا يتعاون فيها الصَّاحبان على هذا ، فمـا همـا بـزوجين ، وإن تصاحبا مكانا وزمانًا وإن توافقا في صِناعةِ ما ليسَ بخـيرٍ ، وبهـذا يُبـيّن لنـا القرآنُ الكريمُ باصطِفاءِ الكلمةِ عن وظيفة البيتِ المسلم :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ . . . ﴾

(النساء: ٣٤)

وهذا يُبين مسؤولية السَّامعِ والقارئ للقرآن إزاء الكلمةِ القرآنية وما فوقها بالسّعي إلى حسن تلقيها والتبصّر في منهاج دلالتها وغايات الإبانة بها ، والمقاصد التي يُراد تحقيقها بِها . إن الأمر جدٌّ عظيم ، والتَّشاغلُ عن هذا قد يلقِي بالمَرءِ في دائرة هجران القرآن : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ (الفرقان: ٣٠) وما هُو بهجرِ تلاوةٍ ، فحسبُ بل أيضًا هجرُ تدبّرٍ وتبصّرٍ ، وهجرُ تأدّبٍ وتحكيمٍ في حركةِ الحياةِ كلّها .

* * *

من معاني الهدي في (الواو) في قولِه ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ :

الواو في ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ لها أحدُ وَجهين :

الأوّل أنّها عاطفةٌ عطفت «امرأته» على الضمير في (سيصلى) فيكون المعنى : سيصلى هُو وامرأتُه . وعطفُها عليه آيةٌ على أنَّها شاركته في مسيره وما كان من أفاعيله ، فشاركته في مصيرِه .

وهذا يهدينا إلى أمرٍ مُهمٍّ جدًّا في حياة امرأة كلِّ رجل :

إنها شريكُه في كلّ ما هو آتٍ من خيرٍ ومن شرٍّ ، فوجبَ عليها أن ترقبَ أَمرَه ، وحركتَه في الحياةِ ، وأن لا تدعَه يفعلُ ما يشاءُ ، بل هي سائلتُه عن جميع أمرِه ، لتطمئنَّ إلى أنّه على صراطٍ سويٍّ ، ووجبَ عليْها أن تكونَ عونًا له على الخيرِ ، وأن لا تحمِلَه على أن يسلُك مسالك الهلكةِ . وليس صوابًا أنها غيرُ مَسؤولةٍ عن حالِ ما يطعمُها ويسقيها وما يُنفِقُ عليها أجاءَ به من طريقه أم من غيره . كلا عليها أن تستوثقَ أنَّه لا يأتِيها برزقِها ممّا

لا يُرضِي الله تعالى ، فالمرأةُ راعيةٌ في بيتِها ومسؤولةٌ عَن رعيّتها . وهذا فيه مِن تكريمِ المرأةِ مَا فِيهِ . إنّها مُكوِّنٌ أساسيّ مِن مُكوِّناتِ الأُسرَةِ ، وعمودٌ مِن أَعمِدتِهِ ومركزٌ رقابي محاسبيّ قويم .

أو أنّ (الواو) عطفتْ «امرأته» وما بعدها على أوّل الجملة ، فيكون من عطفِ القصّة على القصة :

عطفَ قصّة امرأتِه على قصّتِه ، فيكون قَوله تعالى ﴿ **وَٱمۡرَأَتُهُۥ** ﴾ مرفوعًا على الابتداء ، ويكون خبره «حمَّالة الحطبِ» ، على قراءة رفع ﴿ **حَمَّالَةَ** ﴾ ، أو ﴿ **فِي جِيدِهَا** . . . ﴾ على قراءة نصب ﴿ **حَمَّالَةَ** ﴾ . وحينئذٍ يكون الوقفُ على (ذات لهب) تامًّا .

ويحسنُ في الوقفِ التام أن يتلبّثَ القارئ ؛ ليُشعِرَ بتلبُّثِهِ السَّامعَ بتمام المعنى ، وأنّه منتقلٌ بعدُ إلى معنى آخر هو أخ لسابقِه وخدينه .

وهذا الوجه من عطف القصّة علَى القصّة يُفهم منْه أنَّها كانت رأسًا في هذا الصَّدِّ عن سبيل الله تعالى ، وإنَّها لم تفعلْ ذلك مِنْ أنَّها تابعةٌ لأبِي لهب ، بل ذلك شأنُها .

ومن هنا يُمكنُ أن نلمح لطيفةً فِي تسميةِ السَّورةِ مَرَّةً سُورةَ تبَّتْ يَدا أبِي لَهَبٍ ، وتسمِيتها مرَّةً بـ(المَسَد) .

والآخر : أنّ «الواو» واو الحال ، وجملة « ﴿ **وَٱمۡرَأَتُهُۥ** . . . ﴾ إلخ حالٌ مِن الضَّمير في ﴿ **سَيَصۡلَىٰ** ﴾ أي سيصلَى نارًا ذاتَ لهَبٍ حالَ كَونِ امرأتِه حمَّالةَ الحَطَبِ .[1]

---

(١) راجع في وجوه الإعراب : معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧هـ) تحقيق : أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل شلبي ، ط . ١،==

و «واو الْحال» فيها معنَى العَطفِ والمُصاحبة ، وتَسْميتُنا لها «واو حال»، لا يُخْرجها عن أنْ تكونَ مجْتَلَبةً لِضَمِّ جملةٍ إلى جملةٍ»[1].

ومن معاني الهُدَى في القول بالحاليّة هنا أنّ هذا يُبرِزُ لنا أهميّةَ الإنباءِ عن مصيرِ امرأتِه ، ذلك أنَّ الحال حين تقع جملةً ، فهذا يمنحُها مزيدَ التفاتٍ إليْها ، فأنت حين تقولُ : رأيتُ محمدًا وهو ساجدٌ ، فأنت تجعلُ مناطَ العِنايةِ ليس الإنباء برؤيتك محمدًا ، بل الإنباء برؤيته على هذه الحال ، فالإنباءُ بهذه الحالِ محطُّ العناية ، وذلك شأنُ القيودِ ، هي مناطُ العناية في الإنباءِ ، فكلُّ كلمةَ تضافِ إلى ركني الجملة يكونُ لها نصيبٌ وفير من مناط العناية ، فالقيودُ في الجُملة ذاتُ مكانة عليّة مِن القصد في الإنباء ، والقول بأنَّها فضلةٌ إنّما يرادُ أنها ليست بالّتي يفسُدُ أصلُ المعنى بدونها ، كالمسند والمسند إليه ، ولكنّها التي ينقصُ المعنى بدونها ، بل قُلْ يفسُدُ المعنى القصديّ بدونها ، ومِنْ ثَمَّ إنْ تَكُن القُيودُ فضلةً عندَ النحاةِ ، فهي عُنصرٌ مهمٌ جدًّا في المعنَى القصدِيِّ عندَ البلاغيين إذا ما كان هذا في شأن القيود (المتعلِّقات) في بناء الجملة في عالم البيان ، فإنَّ الأمر كمثله في شأن المتعلِّقات (الأبناء) في بناء الأسرة وما فوقها في عالم الإنسان . ليس هنالك من هو فضلةُ وجوده كعدمه ، ليس فاعلاً في مجتمعه وعالمه . كلٌّ له فعله فيه وعليه مسؤليته (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته) ذلك هو هَدْي الإسلام في تعمير الحياة والكون والإنسان ..

==دار المصرية للتأليف والترجمة ـ مصر . ٢٩٨/٣ معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج (م.س) ج ٥ص ٣٧٥

إعراب القرآن ، لأبي جعفر النَّحَّاس (ت : ٣٣٨هـ) تحقيق : عبد المنعم خليل إبراهيم ، ط . ١ ، سنة ١٤٢١هـ . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٢/٥، ١٩٣

(١) دلائل الإعجاز : قراءة شاكر ص ٢١٤ فقرة (٢٤٣)

وقوله تعالى : (حمّالة) جاء على صيغة المبالغة ، إشارة إلى مزيد اعتنائها واهتمامها بذلك الفعل ، وأنّها قد اتخذته رِسالةَ حياتها ، فهي ذاتُ انشغال به ، واعتناء ، ولا تملّ من القيام بحقّهِ عليْها . وفي هذا من الإبلاغ في بيان فساد حالِها ، وأنَّها غير مؤهَّلة لفعل الخيرِ . فهي مشاكهةٌ أبا لهبٍ في صناعة الشّرِ إن لم تكن هي حاملة أبي لهب على هذا النهج فِي صِناعةِ الشّر . والترويجِ له .

* * *

من معاني الهدى في قراءة «النصب» : ﴿ حَمَّالَةَ ﴾

جاءت قراءةُ عاصم بالنّصب ﴿ حَمَّالَةَ ﴾ ، والنَّصبُ يحتملُ أحد أمرين :

الوجه الأول : أنّه نعتٌ نُصِبَ على القطع ذمًّا ، وفي قطعِ النّعتِ عن متابعة المنعوتِ إعرابًا لفتٌ للانتباهِ ؛ لأنّ في المخالفةِ الإعرابية ما يجعلُ السَّمعِ والقَلبَ ملتفتًا إلى هذا التَّغاير ، فينظرُ فيما وقعَ فيه التَّغايُرُ ، والعدولُ ، فإذا هُو كلمةُ « حمالة » فيكونُ لها مزيدُ اعتناءٍ ، فَتَتَغَوَّرُ فِي القلبِ وتتمكَّنُ منه ، فتُعطَى حَظًّا مِن التّأمُلِ لَيْسَ لَهَا إِنْ كَانَتْ قَدْ جَرَتْ عَلَى نَهْجِ المُتَابَعَةِ .

وفي العنايةِ بتأملِها في سياقِها ما يسُوقُ إلى القلب فيضًا مِن مِعانِي الهُدَى في حال المرأةِ وَأَثَرِها على صَاحبِها في صِناعة الشرّ[1] .

---

(١) هَذَا مَسلَكٌ مِن مَسَالِكِ تَوكِيدِ المَعانِي ، وَلَفتِ الانتباهِ إِلَيهَا . فَالسَّيرُورَةُ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ قَد يَدعُو إِلَى الغَفلَةِ عَن الشَّيْءِ الّذِي يُرادُ لَهُ مَزيدُ اعتِنَاءٍ ، وَلِهَذَا كَان مِن مَسالِكِ العِنايَةِ والتّوكِيدِ مَا يُعرفُ عِندَ البَلاغِيّين بِالالتِفاتِ في حَركةِ الضّمائِرِ ، كالانتقال من الغيبةِ إلى الحضور ، فالمحلُّ الّذي حدَثَ فيه الانتقالُ هُو مَناطُ العِنايةِ، وكذلِك العُدولُ عَن المُتابعةِ العددِيّة ، كالانتقال مِن الإفرادِ إلى التَّثنِيةِ أو إلى الجمعِ وكذلك العدول عن المتابعة تذكيرًا وتأنيثًا كما في قولِه تعالى : ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (الأعراف:٥٦) ==

والوجه الآخر : لِنصبِ كلمة «حمَّالة» أنَّها حالٌ والإضافةُ لا تمنعُ القولَ بأنّها حالية ، لأنها ليست إضافةً حقيقية ، تكسبُ المضاف التعريف المانع من الحالية ، فهي أشبه بالإضافة إلى النَّكرةِ ، تمنحُ التَّخصيصَ ، ولا تمنح التَّعريفَ . ولاسيَّما أنَّ المعنى على الاستقبالِ ، فهو وصفٌ لحالها يوم القيامةِ .

ومِن البَيّن أن «الحالَ» في الجُملةِ بمثابة «الخبر» في الدَّلالةِ ، فأنت إذا ما قلتَ: محمدٌ كريمٌ غنيًّا وفقيراً ، فقولك: غنيًّا وفقيراً أفادَ في الإخبار عن محمدٍ ما أفاده قولك كريم إلا أن «كريم» خبرٌ لا يستقيم أصلُ المعنى إلا بِه[1]

وعلى وجهي النَّصبِ يكونُ قوله تعالى : ﴿ **فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾ (المسد:٥) هُو الخبرُ عن (امرأتِه) إنْ قلنا إنّه مرفوعٌ على الابتداءِ ، أو يكونُ حالاً إن قلنا : إنّه مرفوعٌ عطفًا على الضَّميرِ في ﴿ **سَيَصْلَىٰ** ﴾ (المسد:٣) [2]

مِن معاني الهُدى في قراءة الرّفع : (حمّالةُ) :

جاءتْ القراءةُ المتواترةُ الأخرَى برفع (حمّالة) وهي على هذا إمّا خبرٌ عن (امرأتُه) إنْ قلنا إنَّها مبْتدأٌ ، وقوله تعالى ﴿ **فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾ (المسد:٥) خبرٌ ثان ، أو نعتٌ إنْ قلنا إنَّ «امراتُه» مرفوعٌ عطفا على الضَّمير

== عدلَ عن التأنيث في (قريب) إلى التذكير لفتًا إلى شدّةِ قُرب رحمتِه منهم فإنهم المحسنون ، وفي العدول الكتابي عن رسم «التَّاء» في «رحمة» مربوطَةً (رحمة) إلى (التاء المبسوطة) (رحمت) مزيدُ لفت الانتباهِ إلى عظيمِ اتساعِ رحمتِه لهؤلاءِ فإنَّهم المحسنونُ . وفي هذا من التَّرغِيبِ في مقامِ الإحسان ما فيه ، وكلُّ ذلك يجري في منهاج التَّثقيف النَّفسيّ في البيان القرآنيّ ، وهو منهاج جد وسيع .

(١) ينظر في قسمي الخبر في الجملة كتاب : دلائل الإعجاز لعبد القاهر . ص ٢١٢، ٢١٣. فقرة (٢٤١) .

(٢) جاءت قراءةٌ غير متواترة بتنكير «حمالة» وقطعها عن الإضافة ، مع النصبِ وإعماله النصب في ما بعده : حمالةً الحطبَ . وهي بهذا تكون حالا
وجاءت قراءَةٌ أخرى غيرُ متواترة : حمالةً للحطبِ بجر «الحطب» وهي حالٌ أيضًا من «امرأته».

في ﴿ سَيَصْلَىٰ ﴾ (المسد:٣) ويكون قوله تعالى ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد:٥) نعتًا ثانيًا .

ومجِيْءُ النَّعت جملةً عقبَ النَّعتِ المُفردِ سائغٌ شائعٌ في العربيَّة .

وقوله ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ هُو بيانٌ لحالِها في الآخرةِ ، وليس بيانًا لحالها في الدُّنيا إلا على سبيلِ الاستعارة بأن يُصورَ قيامها بالفتنة والإفسادِ في صُورة حمالةِ الحَطبِ .

وصُورةُ حملِ الحطبِ على الحقيقةِ ممَّا تَنفِرُ منه المرأةُ العربيَّة ؛ لأنّه مِن الامتهانِ الّذي لا يكونُ إلا للإماءِ ، فإذا ما كانتْ المرأةُ العربيّة نافرةً مِن حملِ الحَطب على الحقيقةِ وهو ما يُنتفعُ بِه ، فالأولى بها في منطِقِ العَقل الفطريِّ أن تكون أشد نفُورًا من حمل الحطب على المجاز : حملِ الفتنة والإفساد ، والسَّعي بهما بيْن الناس فإنّ ذلك ممَّا يُضِيرُ ويُبِيرُ ، فهو أولى بالهُجران ، ولكنّ أكثرَ النَّاسِ لا يعقِلون .

والقولُ بأن عبارة « حمّالة الحطب » مجازٌ عن ارتكاب جريرة النَّميمة ممَّا شاع البيانُ بِه في لِسانِ العربيّة .

وهذا يُبين لنا أن العربَ قبل الإسلام كانت فطرتهم تنفرُ من هذا الدَّاءِ الوَبِيل المُبيرِ ، ولهذا جاء عن رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم أنه قال : « خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا »[1]

---

(١) روى البخاريّ في كتابِ (التفسير) من صَحِيحِه بِسَنَدِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم : أَىُّ النَّاسِ أَكْرَمُ ؟ قَالَ : « أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ » .قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ . قَالَ : « فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِىُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِىِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِىِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ » ==

وفي القولِ بأنَّ قَولَه تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ ليسَ على الحقيقةِ في مسيرِها لأنها كانت من أشرافِ قريشٍ[1] وأن ذلك على سبيل المجاز يصوّر

==قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ . قَالَ « فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِى ؟ » . قَالُوا نَعَمْ . قَالَ « فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا » .

معاني الهدى في هذا الحديث :

هدي رسُولُ الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم إلى أنَّ العربَ قبلَ الإسلامِ لم تكن خلاءٍ من مكارمِ الأخلاقِ ، بل كان لهم من ذلك نصيبٌ موفور ، وجاهليتهم لم تكن جاهليّة أخلاقية ، بل كانت جاهلية عقدية ، مرتبطة بعقيدة التوحيد ، كانوا مشركين بالله سُبحانه وَتَعَالى ، فلا يستقيم أن يُفهم نعتهم بالجاهلية أنّها جاهلية أخلاقية ، كلاَّ .

الجاهلية التي نحن غارقُون فيها هي الجاهلية الأخلاقيّة ، وإن كنا نعلن في الدنيا أنّنا نوحد الله تعالى . لانعبد أحدًا سواه ، لذلك لمَّا ترك المشركون جهاليتهم العقدية كانوا بما معهم من عظيم مكارم الأخلاق ما ملأ الدنيا عدلاً ونورًا وهدًى ، ونحن في عصرنا هذا على الرَّغم من أننا نعلن صباح مساء : « لا إله إلا الله محمّد رسُول الله » ونملأ الأرضَ مساجد إلا أن جاهليتنا الأخلاقية تهاوت بنا في سفح الحياةِ ودركها الأسفلِ ، فلم يلقَ الناسُ منا إلا ما يُنفرهم عن الإسلام ، فنحنُ من أكبر عوائق انتشار الإسلام . ونحن بهذه الجاهلية الأخلاقية نتلبس بشيءٍ من جريرة الصدِّ عن سبيلِ الله تعالى ، وتلك هي الحالقة الحارقة ، ولكن أكثر الناس لا يعقلون .

(١) جاء في كتب السّير آثارٌ تخبر أنَّها كانت تحملُ بِنفسِها الشّوك فتضعُه في طريقِ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ليؤذيه ، وهذا إن صح ، فهو يُصوِّرُ لنا عظيم ما يعتملُ في صدرها مِن بغضٍ لرسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، وأنها تتلذَّذ بهذا العملِ القميءِ ، لفساد نفسِها ولا تدعه لخدمها يباشرونه عنها ، فبلغ بها من سوء حالِها ، وفساد فطرتها ما أنساها منزلها في قومها شرفًا ، فباشرت ما يَستحيي منه من هو أَدنَى منها منزلةً في القوم .

وهذا يبرزُ لنا عظيم أثرِ « البغضِ ، والشّحناءِ » في مسلك صَاحبِه ، يخرجه عمّا يجبُ أن يستمسك به ويُقيم عليه من الترفع عن صَغائرِ الأفعال والأقوال ==

لنا عظيم خَطر هذا الخلق القَمِيءِ في إهلاك العلاقاتِ بين الناس ممّا يترتبُ عليه من التّعادِي والتّناحر ما لا يُطاق . فالسَّعي بالنّمِيمَة ، ممَّا تقعُ به شرور جسام ، فالمرأة الشريفة نسبًا وحسبًا هي من أنفر الناسِ عن هذا .

وبعضُ أهلِ العلم على أنّ ذلك يصور مصيرها ، فهي تحملُ أوزارها يوم القيامة كما يحمــلُ المـرءُ الحطب ، فيوقـدُ به النّار ، فهي تحمــلُ أوزارها يوم القيامةِ لتكون وقود نارها التي تعذب بها . وكأنَّ في هذا بيانًا لما استوجبته من النَّار ، فهي التي اجتهدت في استحقاقِها ذلك العذاب يوم القيامة . ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام:١٣٩)

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ (النحل:٨٨)

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (فصلت:٢٨)

والقرآن الكريم يُصَرِّفُ هذا المعنى : معنى أن العصاة والطغاة هم الـذين يجتهدون في أن يكونُوا مستحقِّين لِما يكونُ لهم مـن العـذابِ يـوم القيامـة ، ولذا كثُرَ في القرآن وصفُ العُصاة والطغاة بأنهم أصحابُ النَّارِ :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(البقرة:٣٩)

==والأحوال، فإن ابتلي بشيْءٍ من ذلـك استتر ، وجاهـد في التخفّـي . فـإذا رأيـت أحدًا ممّن حولك على مثل هذا فاعلم أنّه من أحفاد أبي لهـبٍ وامرأتِـه .وفي كـلّ هذا ما يُثّقّفُ النفس فتفر من هذا الدّاء الوبيل داء البغضاء والشّحناءِ فرارًا يقيها مـن سوء الذكرى وسوء المصير .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (الأعراف:٣٦)

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (الحج:٥١)

وغير ذلك كثير في البيانِ القُرآني .

وعبارةُ ﴿ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ (المائدة:٢٩) تهدِي إلى أنَّهم صَحِبوا ما استحقُوا به النَّار ، فكأنّهم ما فعلُوا ذلك إلا ليكونُوا أصحابَ النّار ، والصُّحبة تقتضِي المُداومة على الشّيْء ، وهذه المُداومة لا تكون إلا مِن تعمّل ، وتدبيرٍ . وهُم بحقٍّ يَصحبون النّار فِي مَسيرهم وسَيصحَبونَها فِي مصيرِهم .

يصْحبُونَها فِي مَسيرِهم بِما يقترِفُونه مِن صِناعةِ الشَّرّ وإدارتِه في الأرضِ ، فهم بهذا يَحرّفُون الفطرة الَّتي فَطرهم الله تعالى عليها ويحرّفون كلَّ القِيم الآدميّة التي ورثها المرءُ عن أبينا آدمَ عليْهِ الصلاة والسلام .

إنّ صُنَّاعَ الشَّرِ هُمْ فِي حَقيقةِ أمْرِهم قائمُون فِي نَارٍ حقيقيَّةٍ إلاَّ أنّها نارٌ معنويَّةٌ لا تَشعُرُ بها أجسادُهم ، ولكنّ قلوبَهم تحترقُ بِها .

ألا تسمعُ اللهَ تعالى يقُول فِي شأن الّذين يتاجِرون بكتابِ اللهِ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤)

وفي شأنِ الَّذين يأكلون أموالَ اليَتامَى ، يقُول سُبحانَه وتَعالَى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (النساء:١٠)

قولُه تعالى : ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ (البقرة:١٧٤) و ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ (النساء:١٠) الأكل فيه على الحقيقةِ لا على المجاز وكذلك « النار » وإن قالَ بالمجازية بعضُ أهلِ العلم فالأعلى أنّ هذا حقيقة لكنَّها ليست بنارٍ حِسّية تراها الأبصارُ ، وإنّما هي نارٌ معنويّة تراها البصيرةُ ، هي تحرقُ الفطرة السّوية ، والقيم الإيمانية ، فلا تكادُ تبقى شيئًا[1].

ألا ترَى أنَّه قال بعد ذلك : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤)

---

(١) جمعٌ من أهلِ العلم بلسان العربية ذاهبٌ إلى أنّ الكلمة إذا ما كانت لها دَلالة على أمرٍ حسيّ ، ودلالةٌ على أمرٍ معنوي ، فدلالتها على ما هُو محسوس هو الحقيقةُ ، ودلالتها على ما هُو معنويٍ مجازية ، من أنّ الوضع اللغوي الأوَّل كان يضع الألفاظ إزاء المدلولات الحسية ، فالإنسان الأول كان إدراكه المحسُوسات أسبق من إدراكه المعقُولات .
هذا المذهبُ غيرُ مؤسَّس على يقين ، بل غيرُ مؤسَّسٍ على ما يهدِي إليه البيانُ القرآني من أنّ الإنسانَ الأول (آدم عليْه الصّلاةُ والسّلام) لَم يكن بدائيًّا في الإدراك والفهم والإفهام .
كلاَّ . الإنسانُ الأول كان نبيًّا صنعه الله تعالى بيده ، وعلَّمه الأسماء كلها وأسكنه الجنة ، وأسجد له الملائكة . فكيف يكونُ كما يزعمون ؟!!
أحقًّا لم يكنِ سيدُنا آدم عليْه وعلى أبنائه الأنبياءُ جميعًا الصّلاة والسّلامُ يدرك إلا ما كان محسُوسًا . ؟!!!
أكان لا يعرف معنى الحُب والبغض ، والإيمانِ والكفر ؟!!
ألم يكن يعرف مثلاً أنَّ العمى عمى بصرٍ وعمى بصيرة ؟!!!
من ذا الذي يقول إن آدم عليه الصّلاة والسلام كانت الألفاظ عنده في أوّل الأمر إزاء مدلولات حسية ، ثم نقلها من موضوعها الحسي إلى المعنوي ؟
أي دليلٍ على هذا ؟ إنّه ضربٌ في الغيب بغير بينة .
﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (الإسراء:٣٦).

هذا يدلّك على أنَّ ما قبلَ ذلك يكونُ في الدنيا ، وهذا في الآخرة ، فلهم عقُوبتان :

العُقُوبة الأولى في الدُّنيا ، وهي الحرمانُ مِن الشُّعور بما هم فيه من فُجورٍ :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ (الأعراف:١٨٢،١٨٣)

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ (القلم:٤٤،٤٥)

وذلك بتهالُكِ الفِطرةِ السَّوية التي خلق كلّ مولود عليْها ، وإبادة القيم الإيمانية من نفوسِهم .(١)

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾ (الكهف:١٠٣-١٠٦)

---

(١) روى الشيخان : البخاري في كتاب (الجنائز) ومسلم في كتاب (القدر) من صَحيحِهما بسندِهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» .

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (الروم:٣٠)

وهذا يصور لنا عظيم جناية الآباء على الأبناء ممَّا يجعل الأبناء حين يكبرون أسرع إلى العقُوق منهم إلى البِرِّ بآبائهم ، جزاءً وفاقا .

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ (فاطر:٨)

﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ (غافر:٣٧)

والعقوبة الأخرى تتمثلُ في قولِه تعالى ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤)

وفِي قولِه سُبحانَه وتَعالَى : ﴿ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرًا ﴾ (النساء:١٠)

وأمثال أولئك يتنقلون كلَّ صباح من دَرك من دركات الفجور إلى درك أعظم ، ولا ترى واحدًا من أمثالِهم ، يؤوب إلى رشدِه لأنَّ النار تلتهم ما فيه من الفطرة والنفسِ اللّوامة .

فالله تعالى حين قال فِي شأن امرأة أبي لهبٍ ﴿ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾ (المسد:٤) هدَى إلى ما استوجبَ لَها أن تكون في مصيرها من أصحابِ النار . إنّها هي التي حملت أوزارًا على كاهلها في مسيرها في الدنيا ، واصطحبت ذلك ما تخلت عنه ، فكان عدلاً ألا تحرمَ في مصيرها في الآخرةِ ممّا حرصت على اصطحابِه في مسيرِها في الدُّنيا .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ (يونس:٤٤)

﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴾ (هود:١٠١)

﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الزخرف:٧٦)

فمن سلك مسلكها وسار مسيرَها من أحفادِها في كلّ عصرٍ ومصر ، فإنَّ مصيرَه هو هو مصيرُ حمَّالة الحطب (الأوزار) يوم القيامةِ :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام:٣١)

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (النحل:٢٥)

* * *

وجاء قوله تعالى : ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد:٥) شفيعًا لقولِه تعالى ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ (المسد:٤) مصورًا الهيئة التي تكونُ عليْها في جهنّم يوم القيامة ، وهي هيئة تجمع بين أمرين عظيمين:

الأول : المهانة ، والآخر : الإيلام .

أما المهانة فهي العربية الشَّريفة التي كانت تتصايحُ في النَّاس أن قريشًا قد علمت أنَّها ابنةُ سيدها ، فكان من هوانها وإهانتها أن يُجعل في جيدِها حبل من مسد يوم القيامة وهي في وسطِ قومِها الذين كانت في الدنيا تتفاخر بيْنهم بحُليّها وزينتها ، ولذا نجدُ القرآن الكريم يَصِفُ عذاب من كانوا يتعالون على النَّاسِ ظلمًا وعدوانا أنّه عذاب مهين:

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (البقرة:٩٠)

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (آل عمران:١٧٨)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (لقمان:٦)

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

(الجاثية:٩)

فأولئك الذين يتعالون على الناس بأنسابهم أو مناصبهم ، وأموالهم وسلطانهم ظلمًا وعدوانا ويغمطونهم لهم عذابٌ مُهينٌ يوم القيامةِ ، فإنَّ غَمطَ النّاس واحتقارهم والاستخفافِ بِهم شطرُ الكِبر :

الكِبْرُ ضربان :

- بَطْرُ الحَقّ حجدُهُ ودفعه وردّه .
- وغمط النَّاس واستحقارُهم واستصغارُ شأنِهم[١]

اصطفاء كلمة «الجيد» ، إشارة إلى أنّه ليس لها يوم القيامةِ من الحليّ الذي يكون في جيدها إلا حبلٌ من مسد ، فاصطفى الاسم الذي يذكر في سياقِ المدح والوصف الجميل ، فأورده في سياقِ العذاب والهوان ، على سبيل التهكم ، فهو من باب : «تحية بينهم ضربٌ وجيع» وهو باب في العربية وسيع بديع نفيع[٢].

وزاد الأمر تهكمًا أن جعل قلادتها في جيدها حبلاً ، والحبلُ في لسان العربية مَا يُربَطُ بِهِ الأَشْيَاءُ والحيوانات ، ويجعل في غالبِ الأمر في عنق

---

(١) روى مسلم في صحيحه من كتاب (الإيمان) بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ، صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، قَالَ :
« لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ».
قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً .
قَالَ « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».

(٢) إن رغبت في حميلٍ جليلٍ جميل من هذا فانظر : شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقي (ت : ٤٢١هـ) نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ـ ط . ١ ، ١٤٢٤ هـ . ص١٧٩،٤١٣،٤٥٥، ٩٧٠، ١٠٣٥، ١٢٣٨

الحيوان ، وكانوا يجعلـون في عنق العبيد والإمـاء حبلاً ، ولا يظنُ أنّ الحبلَ لا يكونُ إلا من ليفٍ ، بل يكون من ليفٍ وشعرٍ وجلد وحديدٍ ونحو ذلك ، فالحبلُ كلُّ ما يُمكنُ فتله ، ويُربطُ بِه ، يقال : حبلـت فُلانًـا أي ربطتُـه ، وفي هذا من المهانةِ ما فِيه .

وجعل هذا الحبل أيْ ما تربطُ بِه من «مَسدٍ» أي مـن حديـدٍ مَمسـودِ أي محكم المسد «الفتل» ، فكلمة (مسد) تُفهم معنـى شـدة الفتـل ، ولـذا يقـال فلان ممسود أي محكمُ الخِلقة : أي ذو بنية جسديّةٍ متماسكة ، فقولُه (مسد) صِفةٌ لموصوفٍ محذوف أي حبل مِن حديد مَمسود . وهو وصفٌ بالمصـدر كقولنا : عمر عدلٌ ، إبلاغًا في كماله في الصفةِ وكمالِ الصّفةِ فيه . كمـا هـو شأن الوصفِ بالمصدر في سنّة البيان بالعربيّة .

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن هذا الحبل هو ما جاء في قول الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ (الحاقة:٣٢).

يَقُول الواحديّ : «والمعنى أنّ السّلسلة الّتي في عنقها فُتلَتْ من الحديد فَتْلا محكمًا ، ولوي لَيًّا شديدًا ، وهي السّلسلة التي ذكرها الله تعالى في قوله : ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ (الحاقة:٣٢)»[1]

ففي هذا البيان عظيمُ تصويرٍ لما تكونُ عليْه امرأةُ أبي لهـبٍ يـوم القيامـةِ لما كانت عليه من سيئ الخُلقِ في مسيرها في هذه الدُّنيا .

وأنت إذا ما نظـرت في ما خُتمت به السُّـورة رأيت أنّها تنعطـفُ علـى ما استفتحت بِه من تباب قُوةِ أبي لهـب وعتـادِه وسُـلطانِه وتبابِـه هُـو ، فِمـن تبابِ ذلك تبابُ امرأته ، فهي من يديه (كسبِه) أيضًا ، وهلاكها مـن هلاكـه ، ولاسيّما أنَّها كانت ذات أثرٍ بالغٍ فِيه .

---

(١) التَّفْسِيرُ البَسِيْط لأبي الحَسَنِ الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) (م.س) ٤١٧/٢٤

وجاء البيان عن حالِها محتملاً وجهين في النّسق :

الوجه الأول أنّ (الواو) في (وامرأته) عاطفة ما بعدها على صدر الآية ، فكان عطف قصةٍ على قصّة ، وفي هذا إشارة إلى أنّها كانت رأسًا فيما يُكادُ بِه رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

والوجه الآخر يجعلها تابعةً ، سواء قلنا إنّ الواو عاطفة (امرأته) على ضميره في (سيصلى) أو قلنا إنها حالية ، وصاحب الحال هو الضميرُ في سيصلى ، وهذا يفهم أنّها كانت سندَه وقرينةُ له فيما يصدرُ عنه من إيذاء ، وتصدٍّ للدعوةِ[1].

---

(١) وممّا يحسُن التلبثُ عنده أنّه يصحُّ الوقفُ على آخرِ «سيصلى نارًا ذات لهبٍ وامرأتُه» على أن الواو عاطفة «امرأته» على الضّمير في «سيصلى» .
ويكون قولِه «حمالة» على أنّه خبر مبتدأ أي هي حمالةُ الحطبِ ، فيبدأ القراءة بقوله «حمّالةُ»
أمّا إن رفعنا «حمّالة» على أنه نعت لقولِه تعالى «امرأته» ، فلا يستقيم الوقف على قولِه «امرأته»، لأنّه لا يفصل بين النعت ومنعوتِه بالوقف .
وكذلك لا يستقيم الوقف على «امرأته» إن قرأنا (حمّالة) بالنصبِ على الحاليّة كما هي قراءة عاصم لأنّ (الحال) كالصفة .
وإن جعلنا النصب في «حمّالة» على الذّم جاز الوقف على «امرأته». فالكلام كاف دونها ، والاستئناف بجملة الذم سائغ . يقُول الشاعر :

سقونِي الخَمرَ ثُمّ تكنفوني عداةَ اللهِ من كذبٍ وزورِ

جاء قوله (عداة الله) منصُوبا على الذّم .
ويجوز الوقف على «الحطب» بناء أنّه رأسُ آية ، والوقف عليه سنة ، وبناءً على أن قوله من بعدُ «فِي جِيدها ...» خبر عن ضمير «امرأته» أي هي في جيدها حبل من مسد ، فإن جعلته خبرًا ثانيا ، فلا يوقف على (الحطب) إلا اتباعا للسّنة .
ومن الحسنِ أن يُعنى طالبُ العلم بكتابِ الله تعالى بهذا الباب ، ولا سِيما طالب العلم ببيانِه وبلاغتِه ، فإنّ هذا الباب من أجل أبواب فقه المعنى القرآنيّ .

وهذان الوجهان يمثِّلان ما كانت عليه، فبعضُ الأمرِ كانت هي الرّأس فيه، وبعضه كانت شفيعًا وقرينا لأبي لهبٍ فيه .

وهذا يهدينا إلى أنّ امرأة الطاغية إذا سكتت عن طغيانِه فإن مصيرَها كمصيرِه، وأن على القضاء في الدُّنيا أن يجعلها شريكًا له في ما طغَى فيه، لأنّها بسكوتِها عمَّا صنعَه من الفسادِ في الأرضِ كانت عونًا له على ذلك، فعلَى القضاءِ إن كان راغبًا في العدل ـ أن تُجازى امرأةُ كلِّ طاغية بما يُجازَى بِه، لأنها شريكُه في ما اقترفَ .

وفي هذا دعوةٌ إلى التعاون علَى مكافحة صناعة الخطيئةِ ونشرها في الأرضِ، فليستْ رسالتك مسلمًا أن تكون في نفسِك صَالحًا بل لابد أن تكون صَالحًا في نفسِك مصلحًا غيرك وما حولَك، وهذه الثانية أن تصلح ما حولك لا يرضَاها أحفاد أبي لهبٍ من السّياسين ... فشعارهم : «خليك في نفسك» وهذا هو السبيل إلى استضعافِ أهلِ الحق أي طلب إضعافهم والعمل على أن يكونُوا ضُعفاء، فإن الحقّ يُحتاج إلى التعاون عليْه إيمانًا واحتسابًا . ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (المائدة:٢) فالمنهج في الإسلام أن العملَ جَماعيّ تعاوني وتآذريّ والمَسؤولية فرديّة . وكلُّ عمل فردي هو عملٌ خداجُ في نفسِه وأثرِه . وما امتطى الطغاة من بني جلدتنا أو غيرهم إلا لما اكتفَى كل مسلم بالنَّظر في أمرِه، وتعامى عن النظر في شأن الأمة .

يقولُ الله تعالى : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

(التوبة: ٧١)

روى البخـــاري في كتـاب (الصــلاة) و(المظــالم) و(الأدب) ومسـلم في (البر والصلــة والأدب) في صحيحيهما بسندهمـا عَنْ أَبِي مُـوسَى عَنِ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسـلم ـ قَـالَ « إِنَّ الْمُـؤْمِنَ لِلْمُـؤْمِنِ كَالْبُنْيَـانِ ، يَشُـدُّ بَعْضُـهُ بَعْضًا ». وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ .

وإذا ما سعى كل مسلم إلى طاعة الله تعالى وطاعةِ رسُوله صَلّى اللهُ علَيْـهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم فكان وليًّا لكل مسلم أيـًّا كان جنسُـه ومصـره فـإنّ ذلك ليردي أحفادَ أبي لهبٍ ، ولـن تجـدَ لهـم في الأمـةِ أثـرًا مَهمـا تكاتفـت جهودهم وتكاثرت أعوانهم ، وتنوعتْ مناهجهم وأدواتهـم . فـالله ـ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ قد هدانا في رأس معاني الهـدى في سـورة « المصـطفين الأخيـار : سورةِ آلِ عمران قائلا :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)

وقال في سورة (العصر) بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ (العصر: ١-٣)

* * *

فاصلة
رسالةٌ إلى أحفاد أبي لهب وإلى أعدائه

هذه السُّورةُ تحملُ رسالتين :

الأولى : رسالة جاء مضمونها محمُولاً في صريح البيانِ ومنطوقِه لما لها من الأهمية العظمى .

والأخرى : رسالة جاء مضمونها محمولاً في تلويح البيان ومفهومِه تأكيدًا لما جاء به صريح البيان في السُّورةِ قبلها : سورة الفتح والنّصر .

الرسالة الأولى رسالة إلى أحفاد أبي لهب :

لم يكن الكفرَ بالله تعالى وحده هو الذي جعل أبا لهبٍ وامرأتَه في هذا الذي سمعت ورأيتَ ، ذلك أنَّ الكافرين بالله تعالى في زمن أبي لهبٍ وفي كلّ زمانٍ أكثر مِمّن آمن بالله تعالى .

أبو لهبٍ وامرأتُه اتخذا منهجًا آخر فوقَ منهجَ الكُفرِ بالله تعالى ذلك هو منهاجُ الفجور في العداءِ للإسلامِ وللحقِّ عن علمٍ بأنّه الحقُّ ، ومنهاجُ الفجور في الصّدِّ عن سبيلِ اللهِ تعالى .

اتخاذ هذا الفجور في الصدّ عن سبيلِ الله تعالى منهاجَ حياةٍ ، واتخاذ بطرَ الحقّ ودفعَه ، ومجالدته دينًا هو عمود شخصية أبي لهب وامرأته وشخصية أحفادهما في كلّ عصرٍ ومصر .

إنَّ اتخاذَ الفجورِ في الصَّدِّ عن سبيلِ الله تعالى بلسانِ الحال أو لسان المقالِ أو بهما معًا منهاجًا واتخاذ بطر الحقّ دينًا هو من الاستكبار الّذي هو دين « إبليس » الذي حمله على أن يجاهرَ بمعصية الله تعالى ، ويأبى أن

يسجد لما أمرَه الله تعالى أن يسجدَ له ، فكان جزاؤه الطّردُ من رحمة الله تعالى واستحقاق اللعنة .

يقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٣٤)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر:٢٦-٣٣)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء:٦١)

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (ص:٧١-٧٨)

كذلك يصرّف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى البيان عن حال إبليس ودفعِه الحق واستكباره وغمطه آدم عليْهِ الصلاةُ والسّلام ، لما لهذا التصّريفِ من الأهمية العظمى في حياة النّاسِ ، وليكون ذلك الموقفُ الإبليسيّ حاضراً في وعي كلّ عاقلٍ ، فيحاذره ويفرّ منه .

الاستكبار هو مفتاح شخصيّة إبليس وجنده وقد كان لأبي لهبٍ وامرأتِه منزلة متقدمة وقدمٌ راسخٌ وتفنن بالغٌ في هذا الاستكبار ، فجمع أبو لهبٍ وامرأتُه ثلاثًا :

الكفرُ بالله تعالى عن علم بالحق .

بطر الحقِ ودفعُه .

والصدُّ عن سبيلِ الله تعالى .

هذه الثلاث هي مكونات شخصيّةِ أبي لهبٍ ، فمن سلك ما سلك أبو لهبٍ وامرأتُه كان من أحفادهما في أيِّ عصرٍ أو مصرٍ .

ومن حقّ كلّ عاقلٍ أن يحسنَ التبصّرَ في حالِ أبي لهبٍ وامرأتِه مسيرًا ومصيرًا ، ثم يُحسن التبصّر في حالِ نفسِه ، ومدى مباعدتِه عن مناهج أبي لهبٍ وامرأته ، ومدى مقاربته منه ، ليعرف مواقعِ أقدامه ، فقد يغفلُ المرءُ عن حالِه ، بينما هو شديدُ القُرب من حالِ أبي لهبٍ ولا سيّما في الثَّانية والثَّالثة : بطر الحقّ والصَّدِّ عن سبيلِ الله تعالى .

غيرُ قليلٍ من النَّاسِ يقترفُ هذه الموبقة : **بطر الحقّ** ، وهو غافلٌ عن أنّ هذا بطرُ الحق ، وأنَّ هذا شطرُ الاستكبارِ ، وأنَّ من كان في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبرٍ لا يدخلُ الجنّة .

لتنظر فيما يجري في هذه الحياة من حولك في كثيرٍ من المجتمعات والطبقات على تنوعها ، تجد هذا قائمًا مجاهرًا بِه من غيرِ قليلٍ من العامةِ والخاصة ، بل هو في طبقةٍ من ينتسبون إلى أهلِ العلمِ والدّعاةِ .وهو في طبقة « المحامين والسّياسيين والإعلاميين جدُّ كثيرٍ » .

يحملُ على هذه الموبقة المبيرة : « بطر الحقّ » الشعور بالذّات ، والاعتداد بها ، والرّغبة العارمة في الانتصار لها ، فيقف في وجه الحقِّ وهو بِه عليم ،

اتقاءَ انتصار الآخر عليْه ، لأنّه نظر إلى ذاتِ الآخر ، ولم ينظرْ إلى الحقّ الذي معه ، وتغافل أنّ الحقيقة الكبرى : **ليست قيمة أحدٍ في ذاتِه ، إنّما قيمتُه في ما معه مِن الحقّ .**

أنت عزيزٌ بما معك من الحقِّ ، فعزتك تدورُ مع الحقِّ حيث دار .

تلك هي الحقيقة والحقّ ، ولكنَّ غيرَ قليلٍ من الخاصة في مجالِ السياسة والعلم والمحاماة ... شعارهم :

- أنا الحق .
- يدور الحق معي حيثُ أدور .
- حيثُ أكونُ يكون الحق .

نعم هم لا يقولون ذلك بلسان مقالهم ، لكنَّ ألسنة أحوالِهم تصرخ بهذا صَباح مساء .

تلك هي الحالقةُ الحارقة .

والأخرى : الصّدّ عن سبيلِ الله تعالى .

هذه من الموبقاتِ التي يمارسُها غيرُ قليلٍ من المسلمين دون أن يشعروا ولاسِيّما سَحرةُ إبليس . بل إنّ كثيراً من المسلمين هم العقبة الكؤود في طريقِ نشر الإسلام ، لأنّ غير المسلمين ينظرون في الإسلام منهاج حياة ، كما هو في بيانِ الوحي قُرآنا وسنّة ، فيرونه عَلِيّ القدرِ جليلَ المنزلة داعيًا إلى العزّة والرَّحمة ، وينظرون في حالِ أتباعِه ولا سِيما في الوطنِ العربيّ ، فيرون ما لا يقبلُ عاقلٌ أن يكون هذا حالُه من الكذب والغشّ ، والخيانة ، والمداهنةِ ، وحبّ النفسِ ، واستحلالِ الحرامِ ، فالحلالُ عندهم ما حلّ في يديك ، والحرامُ ما عجزت عنه ، فإن عليْه قَدرتَ صار حلالا ... إلى آخر

كلّ مفسدةٍ في الأرضِ . فيحاجزهم حالُ المسلمين عن أن يكونوا مسلمين ، وهذا مِن أكبر عوامل الصّدِّ عن سبيل الله تعالى ، ومن أعتى عوائق انتشار الدّعوة في الناسِ .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (الزخرف:٣٦-٣٩)

ليس الصّدُّ عن سبيل الله تعالى منحصراً في مدافعته بالسّيفِ ، بلْ تلك المدافعة هي أهون أدوات الصدّ عن سبيلِ الله تعالى وأضعفها أثرا ؛ لأنّ هذه المدافعة بالسّيفِ تستثير حميّة كلّ مُسلمٍ وإن كان عاصيًا ، فيغضبُ لدينه ، في الوقتِ الذي هو يمارسُ ما تريد المدافعةُ بالسيفِ أن تبلغه ، وهذا من المبكيات دمًا ؛ لذا لم يُعنَ أعداء الإسلامِ اليوم بمدافعة الإسلامِ بالسَّيْفِ كما كانوا من قبل ، تركوا ذلك ، وأوكلوا مهمة الصّدّ عن سبيل الله تعالى ومدافعة الإسلام ، ومحاجزته عن الانتشار ، وعَن أن يكون دين النّاسِ في الأرضِ إلى جمهرةٍ ممّن ينتسبون إلى الإسلامِ وراثة . اتخذوا من أفعالهم وأحوالِهم وأقوالهم سبيلاً إلى ما كانوا يريدون تحقِيقه من مدافعة الإسلام والصدّ عن سبيلِ الله تعالى بالسّيف .

إن إعلاميًّا واحدًا فاسدًا في قناة تلفازية واحدة لَيقُومُ بما يعجزُ عنه جبشٌ عرمرم يبغِي دفع الإسلامِ ومنعه من أن يبلغ الناس ، ويبغِي الصدّ عن سبيلِ الله تعالى .

وإن فنانًا واحدًا عاهرًا يفوق أثره في المدافعة والصد عن سَبيلِ اللهِ تعالى أثر كتيبة مدججة بأعتى الأسلحة .

وإن أستاذًا جامعيًّا واحدًا فاجرًا ، علمه في لسانِه ليفسدُ ويصدُّ عن سبيلِ الله تعالى أكثر من فرقة متترسة بأحدث المعدات الحربية .

وإن خطيبًا ماجنًا استحبَّ الحياة الدُّنيا على الآخرة ، استعبدته شهواتُه وملذاته يخرج على الناس كلّ جمعة على منبرٍ في مسجدٍ ، فيفسُد حالُه ما يدعو إليْهِ مقاله : لسان مقالِه يدعو إلى الهُدى ، ولسان حالِه خارج المسجد يسوق الناسَ إلى الفجور سوقًا .

وإن شيخًا واحدًا من شُيوخ الفتنة والفجور عبدةِ السلطانِ ليفسُد ما يصنعه جمعٌ متكاثرٍ من صالحي الدّعاة إلى الله تعالى ، ولا سيّما إنْ ابتلي بفصاحةِ بيانٍ وبِغباءِ جنانٍ وبِمؤازةِ إعلامِ سلطان ، وكان علمُه فوق عقلِه ، فعلمٌ بلا حكمة (عقل) هو مطيَّة صَاحبه إلى جهنم .

روى أبو داود في كتاب (الأدب) من سننه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عَمْرو ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِى يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ تَخَلُّلَ الْبَاقِرَةِ بِلِسَانِهَا »[1].

وإنَّ كلَّ من علم بحالِ أبي لهبٍ مع رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ومع الإسلام ، ورضي بما فعلَ ، أو لم ينكر ما فعل ، ولم يستعذ بالله تعالى من حاله وفعلِه ، ولَم يجأر إلى الله تعالى بأن يقيه حالَه وفعاله هو من أحفادِ أبي لهبٍ .

---

(١) صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود . حديث رقم : (٥٠٠٥) وسلسلة الأحاديث الصحيحة . حديث رقم (٨٨٠)

وإنَّ كلَّ من صدّ عن سبيلِ اللهِ تعالى : عن الإسلامِ قُرآنا وسنة ـ بأيِّ سبيل من سُبلِ الصدِ المباشرِ الصريح أو الصدِّ غير المباشر هو من أحفادِ أبي لهبٍ وامرأتِه .

وإن كلّ مَن استحقرَ أهل القرآن والسّنةِ ، وتسفّه حالهم ، ونفّرَ من منهجهم وافترى عليهم ، وأشاعَ الأكاذيبِ عنهم ، وصورِهم في صورٍ تنفرُ منها النفوس ، ولا سيّما نفوس الشباب هو من أحفاد أبي لهب .

وإنّ مِن أحفادِ أبي لهبٍ الصّادين عن سبيلِ الله تعالى أولئك الذين يريدون أن تشيع الفاحشةُ فِي المجتمعِ المسلم ، والذين يريدون أن يبدّلوا كلامَ الله تعالى ، والذين يتناعقُون في وسائل الإعلامِ بوجوبِ تنقية النّصّ المقدّس : القرآن والسنّة ممّا لا يليقُ ـ في نظرهم الأحمق ـ مع مستقبلِ الأمّة . والذين يدعون كذبًا وإفكًا مبيرًا أن النّصّ المقدّس يدعو أتباعَه إلى قتل الآخرين كلُّ أولئك ، ومَن رَضِيَ بِهم ومَنْ سَكتَ عَن أفاعيلهم ، كلُّ أولئك مِن حفدة أبي لهبِ . لَهُم ما له وعليهم ما عليه .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (التوبة:٣٢)

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(الصف:٨)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

(الأنفال:٣٦)

حريٌّ بكلّ عاقلٍ يريدُ مَنجاةَ نفسِه أن يُحسن البصرَ بما جاءت بِه سُورة المسدِ ، وأن ينظر في حالِه ، ليتقن موقعَه من موقعِ أبي لهبِ وامرأتِه .

وحرى بكلِّ مُسلمٍ يرجُو منجاةً يومَ القيامة مِن صُحبة أبي لهب وامرأتِه في نارٍ ذات لهبٍ أن يتبرّأ منهم علنًا ، وأن يجأرَ إلى الله تعالى بالدُّعاءِ عليهم ، لعلّ الله تعالى يرفَعُ عن المسلمين تسلّطهم ، ويُقيم الحقّ وأهلَهُ مقامًا حميدًا مديدا .

* * *

وإذا ما كانت سُورة « تبت يدا أبي لهب» حملت هذه الرِّسالة إلى أحفادِ أبِي لهبٍ وامرأته في صريح بيانها ومنطوق آياتها ، فإنها حملت أيضًا رسالة إلى شانئِي أبي لهب وامرأته ، وأعداء منهجهما في مفهومِ بيانِها ، لأنّهم قومٌ تفقه قلوبهم ما يحملُه مفهوم بيانِ الوحي كمثل ما تفقه قلوبهم ما يحملُه منطوقُ بيان الوحي وصريحه الذي جاءهم في سورة « النّصر »

حمل مفهوم البيان في سورة « المسد» البشرى لكلّ مسلم يحملُ هم الدّعوة إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى في قلبِه ، ويخضع حركته في هذه الحياة لخدمة هذه الدعوة .

حملت البشرى بأنّ كلّ من يتصدّى لسعيك هذا إنّما مصيره هو مصير إمامِه أبي لهبٍ وامرأته ، وأنَّ مصيرك أنت هو ما جاء مصرحًا بِه في سورة النّصر والفتح .

فعلَى كلّ من جاءته البُشرى تلويحًا في بيانِ سورةِ « المسد» وتصريحا في سُورة « النّصرِ » أن يستحضرَ دائمًا ما ختمت بِه سُورة (النحل) التي ترسُم لنا منهاج الدَّعوة إلى الله تعالى :

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦

وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾

(النحل:١٢٥-١٢٨)

وفي قوله تعالى جدُّهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٨) ما يملأ قلبَ كلّ داعٍ إلى الهدَى باليقين بِعقبَى النصر والفتح ، وهذا ما يثور عزيمة كلّ داعٍ إلى الهدى بصفاءِ قصد ، وطهارة قلبِ ، والتزام بما شرعَ الله جلّ جلالُه في كتابِه وسنة رسُوله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم وإتقان عملٍ وصبرٍ عليْه . فتلك عواملُ النّجاحِ والفلاح في كلِّ عملٍ صَالحٍ مصلحٍ .

* * *

obeikandl.com

هذا بيان للناس
الرِّضا بالمنكر وصورِه

مِن سُنةِ الله تعالى في خلقِه أن جعلهم مهيّئين لسلوك طريقِ الحق والمعروفِ والخير ، ولسلوك طريق الباطلِ والمنكرِ والشَّرِّ .

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾

(البلد:٨-١٠)

وأوجب على من هداه الله تعالى هداية إبانة وإعانة وتوفيقٍ إلى الخيرِ أن يقوم بالوفاء بحقٍّ عليْه لمنْ سلك سبيل الباطلِ والمنكر والشر ، فيأخذ بيده بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن جادلَ جادله بالتي هي أحسن ، فإن كان من أحفادِ أبي لهبٍ فأعرَض واعترضَ وصدَّ الحق عن أن يُبلَّغَ للناس كيما يتخذوا بأنفسِهم لأنفسِهم قراراً بالقبول أو الرفض ـ أن يأخذوا على يديه : أنْ يقاتل حتى يكفّ عن الصَّدِّ والمعاداة ، فإن لم يكفّ قُتلَ حمايةً للنَّاس من شرّه المستطير . أَحسِنْ إليْه في قتله قَالَ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ ». (مسلم : الصيد والذبائح)

ذلك فرضٌ لابدّ من القيامِ بحقّه ، أمَّا أن يَتركَ أهلُ المعروف صُناعَ المُنكر ومروجيه يفعلون ما شاءوا ففي ذلك تعريضٌ للأمة للهلكة وكان الناس جميعًا سواء في صِناعةِ المنكر وترويجه ..

روى أبو داود في «الملاحم» من سُننه بسنده عَنِ الْعُرْسِ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ـ قَالَ :

« إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا ـ وَقَالَ مَرَّةً: «أَنْكَرَهَا» كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا».

حسَّنه الألبانيّ في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

* * *

أصناف الناس إزاء الخطايا :

الناسُ إزاء الخطايا والآثام حين تقع أربعٌ :

الثلةُ الأولى : تشهدُها لأنَّها فعلت بيْن عينيْها طوعًا أو كرهًا ، ولكنَّها تتَّخذ موقفًا كريمًا : تُنكرُ وتعترضُ وتُبِينُ عن خطر ذلك وتسعَى إلى تغييرها بما شرع لها ، وبما اقتدرتْ عليْه ، فتلك هِي النّاجيةُ .

والثلّـةُ الثانيـة : تشهدُها ، ولا تتخذُ موقفًا كريمًا منها ، بل ترضَى ويعجبها ذلك ، بل ربّما تمنت أن تفعلها ، فتلك هي الخاسِرة خُسرانًا مبينا .

والثلةُ الثالثة : لم تشهدها وعلمت بها علم يقين ، فغضبت لله تعالى ، أنكرت بما وسعها ، وسعت إلى تغييرها بما شرع لها ، واقتدرتْ عليْه ، فتلك هي النّاجية .

والثلّةُ الرابعة : لم تشهدها أيضًا وعلمت بِها ، وما حركت ساكنا بدعَوى دع الخلقَ للخالقِ ، وبدعوى «عَلَيْكُمْ أنفُسَكم» وبدعوى الحريةُ الشّخصية»... إلخ

فتلك كالثانية هي الخاسِرة[1].

والثُّلة الثّانية والرَّابعة الهالكتان يتكاثرُ أهلُهما تكاثرَ الجرادِ في زماننا هذا.

وفي هذا النّبأ الكريم من رسولِ الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم بَعثٌ لكلّ مسلم إلى أن لا يكتفِي بترك فعلِ المنكراتِ ، بل عليْه فرضَ عين أن يتجاوزَ ذلِك التركِ لفعلِ المنكرِ إلى أَن يُنكرَ على من فعلَ المنكراتِ ما استطاعَ ، وبكلِّ سبيلٍ من سُبلِ الإنكارِ والتغيير ، وأدناها كُلفة بغضُ القلبِ صِدقًا هذا المنكرَ وبغضُ أهلِه حتّى يتركوه إيمانًا واحتسابًا والتزامًا ، لا عجزًا . فمن لم يفعلْ ولم يقمْ في هذه المنزلة فقد خرج من الإيمان ، لا الإسلام ؛ لأنَّ عدم الإنكارِ بالقلبِ وما يلزمُه لا يعجز عنه أحد قط ، فترك الإنكار بالقلب آيةٌ بينة بالرّضا بالمنكر ، وبأهلِه ، وهذا من بابِ محاربة اللهِ تعالى . والله عزّ وعلا يقُول :

---

(١) قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (المائدة:١٠٥) معناه الزموا صلاح أنفسكم ومراقبتها ، لا يضركم ضلالُ الكافرين إذا أسلمتم أمركم لربكم وقمتم إيمانًا واحتسابًا بحق هذا الإسلام من أمرٍ بمعروفٍ ونهي عن المنكر بما شرعه الله تعالى لكم ، فإليه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ وحده مرجعكم فيخبركم ما كنتم تعملون سرًّا وجهرًا قولاً وفعلا .

فليس في الآية البتة دعوة صَريحة أو غير صَريحة إلى أن يدع المسلمُ النَّاسَ يفعلون ما يَحلُوا لهم من المنكرات ما دامت هذه المنكرات لا تمسّه بسوء مباشر . وجهلوا ، فضلوا وأضلوا ، لأنَّ كلّ منكر يقترفُ أحد من قومك ثم لا تنكره عليه هو لا بدّ أن يعودَ سوء أثره عليك وعلى سائر قومك . وقول العامّة : أنت حرّ ما لم تضر « كلمة تفهم فهمًا جدَّ خاطئ . لن تقف البتة آثار المنكر على من اقترفه ولو في قعرِ جبل في ظلمة الليل ، إنّها لا محالة سيُصيبُ أثرها البلاد والعباد بطريقٍ مباشر أو غير مباشر ، عاجلا وآجلا . فليس هنالك قطُّ في الإسلام الذي جاء به القرآن والسنة حرية شخصية في ارتكاب المنكرات .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة: ٢٠-٢٢) .

* * *

من صُور الرّضَا بالمنكر:

للرّضَا بالمنكر وأهلِه صُورٌ كثيرةٌ يغفُلُ الناسُ عنها ، ويحسبون جهالة أنّها ليست من تأييد المنكر وأهلِه .

● من الرّضا بالمنكر وبأهلِه أنْ تعينهم ولو بكلمةٍ ، بل ولو بالصّمتِ وهذا ممّا يقع فيه كثيرٌ من العامة . وأنْ تشهد مشاهدهم ، ومجالستُهم ، وتكثيرُ سوادهم . وأن تستمع إلى برامجهم ، وأنْ تتصلَ بقنواتهم ، وأنْ تشارك في شأنٍ من شؤونهم .... إلخ ، وأنْ تقرأ أخبارهم ومقالاتهم إلا إذا كنت من أهلِ الإنكارِ باللسانِ ، بأن تكون من أهل العلم أو من طلبته المتقدمين فِيه المالكين لحُسنِ الفهمِ وحسنِ البيان لتنقضَ ذلك وتحذر منه وتُبين عمَّا فيه من المُنكر بالحُجَّة والبُرهانِ الصَّحيح الصريح .

* * *

● ومن الرّضا بالمنكر وبأهلِه ألا تستعيذ بالله تعالى جهارًا من منكراتِه ، وأن لا تعلن براءتك من أفعالِهم ..وأن لا تدعو الله تعالى أن يأخذَ بهم إلى الحق أوْ أن يُطهرَ الأرض من رجسهم ، ورجسِ من يُعينهم ومن يرضَى بهم .

* * *

● ومن الرّضا بالمنكر أن لا تُطالب ولاة الأمر بالأخذِ على أيديهم ومنعِهم من منكرهم بكلِّ سبيلٍ شرعه الله تعالى لوليّ الأمر في هذا ، فإن لم يفعل وليُّ الأمر ذلك ، فقد أسقط حقه في طاعته ، وبقي لأهل المعروف : العلماء والحكماء . ليس العامة أن يتولوا ذلك بأنفسِهم إلا إذا ترتب على ذلك منكر أكبر ، ولا سيّما منكر تمزيق وحدة المسلمين ، ومنكر إراقة دم بغير حق مشروع فحينئذ يدرءُ منكرٌ أعلى وأشنع بمنكرٍ أدنى ضُرًّا ونكالا . وأهل العلم بكتابِ الله تعالى الذين امتزجت الحكمة بعلمهم هم أولى الناس بتقدير ذلك ، وليس كل ذي علم بحكيم ، فكم من عالمٍ حامل لمقالات أهل العلم هو الخلاء من العقل (الحكمة) وقليلٌ من العلم المحقق مع كثيرٍ من الحكمة هو النافع والناجع ، وكثيرٍ من دقائق العلم ولطائفه وطرائفه مع خلاءٍ من الحكمة هو الهلاك والبوار ، والجهلُ خيرٌ منه عاجلاً وآجلاً .

وقد كثرت هذه الثلة التي كان علمها فوق عقلها في زماننا هذا كثرة تنخلع لها القلوب هلعًا وفرقًا مما سيحل بالبلاد والعباد من الوبالِ بهم . فمثلُ أولئك فريضة على ولي الأمر رأس الدولة أن يحجر عليهم حجر السفيه . .

كلُّ ذلك وكثيرٌ غيرُه من صُور الرّضَا بفعلِ المنكر لا يتسع المقام لبسط القولِ فيه .

ومنْ فعلَ صُورةً من هذه الصورِ كان حينئذٍ كمثلِهم ، يُعاقبُ بعقُوبتهم .

هم فعلوا المنكر وهو لم يَغضب لله تعالى .

همْ فعلوا المنكر وهو لم يُتاركهم ، ولَم يُفاصلهم ولَم يُتحاجزْهم ، بل بقي متعلقًا بِهم وبأخبارِهم وبأحوالِهم ....

هم فعلوا المنكر وهو لم يُحفزْ من يملك منعهم ويحثّهم بما شرع الله تعالى حثّ ولي الأمر بِه . وكلُّ هذا آيةٌ بيّنة على أنّ مَن لم يتصدّ للمنكرِ وصنَّاعِه ومروِّجيه ما تزالُ في قلبهِ أثارة وبقية من محبّة فعلِه المنكر .

إنَّ من هدى النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم في اتخاذِ موقف من المنكر وأهلِه مقاطعتَهم مقاطعةً تامَّةً .

ألا ترى كيف فعل صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم مع الثلاثة الذين تخلفُوا عن غزوة « تبوك » ؟

عزل المجتمع المسلم عنهم ، أقام بينهم وبين سائرِ المسلمين حجازًا منيعًا . فحلَّ بهم من الهمِّ والغمِّ والكمدِ ما حلَّ ، وأنت تقرأ بيان القرآن الكريم ذلك في قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة:١١٨) (١)

إنك إن أحسنت التلقّي لما أنبأ به الله تعالى في كتابِه الكريم وأخبرَ به رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم في بيانِه الشريف عن حال فعل المنكر وأهلِه ، وأثر ذلك في الأمةِ حملت فيضًا عظيمًا من معانِي

---

(١) أحيلك على ما رواه الشيخان : البُخاريّ في كتاب « المغازي » من صحيحه ومسلمٌ في كتاب « التوبة » من صحيحه من حدِيثِ كعب بن مالك رضي الله عنه أحد الثلاثة الذين تخلّفوا عن الغزوة دون عذر شرعي . ولولا طول الحديث لنقلته لك ، فتشرَّفْ أنت بقراءته في صحيح البخاري ، وصحيحِ مُسلِمٍ ، ثُمَّ في شرح ابن حجر له في فتح الباري (١١٦/٨ وما بعدها . حديث رقم : ٤٤١٩)) وكتاب شيخنا « شرح أحاديث من صحيح البخاري : دراسة في سمت الكلام الأول . ط٢ ١٤٣١هـ ص ٦٠٥ - ٦٨٧

الهدى التي تبصر بها طريقك إزاء أهل المنكراتِ ممّن يُحيطون بك حيثُ حللت في هذا العصرِ الذي تكاثر فيه الفجرة .

إنَّ على ولي الأمر العام المسلم قلبًا وقالبًا وظاهرًا وباطنًا أن يأخذ على أيدي هذه الطائفة من المجاهرين باقترافِ السيئات والتفاخرِ بِها ، ودعوةِ الناس إليها ؛ لأنّهم خطر على الأمن القومي كما يقول السّاسة ، وهم أشدُّ خطرًا على الأمُّة ممن يقترف جريرَةَ «التجسس» و«التّخابر مع دولة أجنبية» التي عقوبتها في القانون الوضعي الإعدام ، ذلك أنّ الّذين يجاهرون بالمعاصي ويتفاخرون بها ويُغرُون الناسِ بها إنّما يستوجبون عليهم وعلى الأمة محاربةَ الله تعالَى لَهم ، وإذا كان الذي لا يدع الرّبا قد هدِّد في كتابِ الله تعالى بالحرب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٧٨،٢٧٩)

فكيف بالذي يحاد الله تعالى ورسُوله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ويجاهر بالفسُوق ويفاخر بالفجور ؟

إنّ علينا أمرين:

الأولُ : ألا نعين الشيطانَ على أخينا الذي لم يتخذ الفجور صناعةً ورسالةَ حياة .

والآخرُ : أن نكون لكلِّ أخٍ لنا فِي الله تعالى وفي إقامة شرعِ الله تعالى في الأرضِ إيمانا واحتسابا عونًا له على الشيطان ؛ لنكسرَ شوكته ، وشوكة جندِهِ ، وشوكةَ عبدتِه الذينَ يجاهرون بالخطايا ويتفاخرون بها ، ويتصايحون في

الناسِ بتسفيه أهل العلم ، حملة كتابِ الله تعالى وجند سُنة رسُولِه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

فحقٌ على كلّ مسلمٍ أن يجاهدهم بما ملك وبما يقتدرُ على الجهادِ بِه . فإن جهادهم بما يقتدرُ عليْه كلُّ مسلم فرضُ عينٍ عليه .

وأيسر ما نجاهدهم به التمسُّك بكتابِ اللهِ تعالى وسنة رسُوله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم حتى يشيع ذلك في الأمة .

ولا يمرضُ قلوب أحفادِ أبي لهبٍ ولا يُنهكها ويُدميها كمثل ما يرونه من تزايد أهل الطَّاعة وإصرارهم عليها إيمانًا واحتسابًا ، وانتشار التمسك بسنن رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم السلوكية ولاسيما بيْن الشباب رجالا ونساءً ، فمثل ذلك يملأ قلوب أولئك غمًّا وكمدًا متكاثرًا .

وهذا سلاحٌ نافذٌ فاتك يمكن كلّ مسلمٍ أن يجاهدَ بِه ، فشيوعُ الطَّاعة لله رب العالمين من أكثر الأسلحة الفاتكة بأحفادِ أبي لهبٍ .

إنَّ هذا السِّلاح ليملأُ قلوبَهم مرضًا ، فلا يهنأ أحدٌ منهم بما باعَ بِه آخرته من عرضِ الدنيا . فلا تلقِ سلاحك ، فإن من وراءك أحزابًا للشيطان تتربَّص بك ، وتنتهز فرصة من الغفلة أوالوهن تأخذ بك لينقضُوا عليك . فاحذر

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة:٥٢)

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (طه:١٣٥).

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(العنكبوت:٦)

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

(العنكبوت:٦٩)

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات:١٥)

سُبْحَانَك اللهمَّ وبِحَمْدِك أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ أَنتَ أسْتغفِرُكَ وأتوبُ إليك ، فاغفِرْ لِي فَإنّه لا يَغفرُ الذُنوبَ إلا أنتَ ، وصَلِّ وسلّم وبارِك على عبدِك ونَبيّك سَيّدنَا مُحمّدٍ وعلَى آلِه وأزواجِه وذريتِه وأصحابه وورثَتِه مِن أهلِ العلم وأمّتِه أجمعين عددَ خلقِك ورِضاءَ نفسِك وزِنةَ عرشِك ومِدادَ كلماتِك كَما تُحبُّ وترضَى إنّك حَميدٌ مَجيدٌ .

والحَمدُ للهِ ربّ العالمين »

وكتبه

محمود توفيق مُحمّد سعد

almasry411@gmail.com

obeikandl.com